الفصل الرابع

العاملون بالنشاط التجاري البحري

من القرن ٥ – ٧ هـ/١١ – ١٣ م

أولاً – العاملون بالمراكز التجارية :

أ – العاملون بالوظائف الإدارية

ب – العاملون بالوظائف الرقابية

ثانياً – العاملون على السفن التجارية:

أ – الربان

ب – البحريون

ثالثاً _ التجار:

أ– التصنيف الديني العرقي :

١ – التجار المسلمون

٢ – التجار غير المسلمون

ب– التصنيف المهني للتجار :

١ – تجار العمل الجماعي

٢ – تجار العمل الفردي

جـ– التصنيف الاجتماعي :

١ – التاجر الحاكم

obeikan.com

٢ – التاجر الفقيه

د- منازعات التجار :

١ – أنواع المنازعات

٢ – أهل الاختصاص في الفصل في منازعات التجار

obeikan.com

انقسم العاملون في النشاط التجاري البحري لبلاد المغرب الأدنى إلى ثلاث مجموعات رئيسية؛ المجموعة الأولي هم العاملون في المراكز التجارية البحرية، والمجموعة الثانية هم العاملون على ظهر السفن التجارية أثناء رحلاتها التجارية، أما المجموعة الثالثة والأخيرة فهم التجار الذين يقومون بالعمل التجاري نفسه، وسوف نقوم بعرض كل مجموعة على حدى فيما يلي:

أولاً – العاملون بالمراكز التجارية:

كان العاملون بالمراكز التجارية البحرية ذات صفة رسمية أي يتبعون الكيانات السياسية التي قامت في منطقة المغرب الأدنى أو المراكز التجارية البحرية التي تدخل في نطاق التجارة البحرية لبلاد المغرب الأدنى؛ ويمكن تقسيم هؤلاء إلى قسمين رئيسيين هما العاملون بالوظائف الإدارية والعاملون بالوظائف الرقابية؛ وسوف نعرض لكل مجموعة من هاتين المجموعتين:

أ – العاملون بالوظائف الإدارية:

شهدت بلاد المغرب الأدنى العديد من العاملين الذين يتبعون الكيانات السياسية والذين كانوا يختصون بشكل مباشر أو غير مباشر بمتابعة الأعمال التجارية البحرية. ومن هؤلاء الوزير المختص بالشئون المالية والتجارية وسُمى " صاحب الأشغال"[١]، ونقلت إلينا المصادر اسم "متولي الأشغال"[١] في العصر الزيري،

---

١) خطاب تعيين أحد موظفي الإدارة المالية الموحدية، ويرجح أن يكون صاحب الأشغال، وهى غير مؤرخة، نشر احمد عزاوي: رسائل موحدية (مجموعة جديدة)، جـ١، ص٤٢٧،
والأشغال: ويقال أيضاً الأشغال المخزنية، والأشغال المالية، والأشغال الخراجية، وأشغال العدوتين، وهي ألفاظ بمعنى الشؤون المالية والإدارية، قد كثر استعمالها في العصر الموحدى، أنظر: ابن الأبار: مصدر سابق، جـ٢، ص ٢٩٣، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٦٦.

وكان يتولى هذه الوظيفة محمد بن محمود ابن السكاك، وفي عهد تميم بن المعز كان جرجي الأنطاكي يشرف على مالية الدولة الزيرية. وقد أخبرنا التجاني أن تميماً "قد حكمه في موارد الدولة ونفقاتها، فصارت أموال المسلمين كلها في يده وأيدي أقاربه"(٢). وقد عرفه البعض بأنه " المتحدث في أمر المال" في عهد دولة الموحدين(٣) وهو بمثابة وزير المالية. كما كان يطلق عليه أيضاً "والي الخزانة"(٤).

واستمر منصب وزير الأشغال أو صاحب الأشغال المشرف على شئون التجارة البحرية في العصر الحفصي، وعندما أصبح أبو زكرياء حاكم بلاد المغرب الأدنى،

---

١) حسب الاصطلاح الحفصي وفي كل كامل المغرب الإسلامي بصفة عامة، يُطلق آنذاك علي المالية العمومية عبارة "الأشغال " أو "الشؤون"، المستعملة بمعناها الضيق، كما يُطلق في أغلب الأحيان علي المصالح المالية للدولة عبارة "أعمال" أو "وظائف" بدون أيّ نعت آخر. وكثيراً ما يُعرف كبار الموظفين العاملين في تلك المصالح بإسم "العمال" (جمع عامل) بدون تخصيص كما هو الشأن في كثير من البلدان الأخري منذ عهد بعيد. ويُطلق علي دفاتر المحاسبة المالية، أكثر من غيرها من الدفاتر الأخري، اسم "الأزمة" (جمع زمام). ولقد انتشرت استعمال هذه العبارة الي جانب العبارة التقليدية (الديوان) التي تعني حسب الاصطلاح الإداري الخاص "المكتب" انظر روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٦٦.

٢) التجاني: مصدر سابق، ص٣٣٣، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٣٣ .

٤)ابن الأبار: مصدر سابق، ص٢٩٣، القلقشندى: مصدر سابق، جـ٥، ص١٣٩، جـ١٥، ص٣٦٠، هوبكنز: مرجع سابق، ص٨٣.

١)الزركشى: مصدر سابق، ص٢٩، العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافى، أبو ظبى- الامارات العربية المتحدة٢٠٠٢م، جـ٤، ص١٥٠، يوسف أشباخ: مرجع سابق، ص٢٤٢،

- Abdallah Laroui : Op.cit , p١٨٣.

obeikan.com

أصبح وزير الأشغال أكبر منصب بعد وزير الجند، وقد تولى هذا المنصب في عهد الواثق الحفصي أبو عثمان سعيد بن أبي يوسف بن أبي الحسين[١].

وقد كان لصاحب الأشغال مكانة ممتازة نظراً للأعمال التي يقوم بها، حتى أن بعض المؤرخين مثل المقري جعله في منزله أعلى من منزلة الوزير[٢]، وربما يرجع ذلك إلى صفات الأمانة والإخلاص التي كان يتميز بها صاحب هذا المنصب، فمن تولّوا هذه الخطة كانوا في غاية الأمانة والضبط، ومن أهل ثقة الخليفة الذي عيَّنه[٣]. وكانت مهام صاحب الأشغال المالية والتجارية متعددة فهو يشرف على استخراج الأموال وجمعها وضبطها وصرفها، وكان مسئولاً عن الأعمال المالية في الولايات، ومحاسبة العمال بأمر من الخليفة[٤].

من جانب آخر كان مصطلح (مشرف) مستعمل بكثرة في إفريقية، كما كان مستعمل منذ عهد بعيد في الأندلس والمغرب، وهو يُطلق على صاحب الجمارك بالعاصمة وبأية مدينة من المدن الأخرى، علي حد السواء وتسمى الوظيفة التي يتقلدها "الإشراف"[٥].

---

١) الزركشي: مصدر سابق،ص٤١، العمري: مصدر سابق ، جـ٤، ص١٥٠، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٥٣.

٣) نفح الطيب : جـ١ ، ص٢١٧.

٤) ابن عذارى: مصدر سابق، ص٢٢٥، عز الدين عمر موسى: مرجع سابق، ص١٦٩،
- Abdellatif Sabbane: Op.Cit,p.٢٧٧.

٥) ابن خلدون: المقدمة، ص١٧١، عز الدين عمر موسى: مرجع سابق، ص١٦٩.

٥) روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٦٧.

- Mas Latrie : Traite,pp.١٢٣ , ١٨٨

وحول وجود المشرف في بجاية وقابس في القرن الثالث عشر، انظر: أبو العباس الغبريني: مصدر سابق، ص٥٦– ١٩٣.

obeikan.com

وجدير بالذكر أن بلاد المغرب لم تعرف هذا المنصب إلا في أواخر حكم المرابطين في بعض الولايات. وقد أقر الموحدون هذه الوظيفة فوجدت في ولايات الدولة منذ خلافة عبد المؤمن بن علي (٥٢٤-٥٥٨هـ/١١٢٩-١١٦٣م)، والذي أقر المشرفين الذين وجدهم في المدن التي فتحها على أعمالهم[١].

وفي جميع أطوار الدولة كان هناك مشرف في كل المدن الهامة مثل بجاية وإفريقية وأزمور وغيرها من مدن المغرب وأقاليمه، إلا أن ذكر المشرف لم يظهر في المصادر المعاصرة للموحدين بشكل واضح إلا في وقت متأخر من عمر دولتهم. ومنذ عهد الخليفة الرشيد (٦٣٠- ٦٤٠هـ/١٢٣٢-١٢٤٢م) اتخذ الخلفاء مشرفاً مع وجود صاحب الأشغال[٢]. ولكن ما هي مهمة المشرف الخاصة بالتجارة البحرية ؟ كان المشرف – بالإضافة لمهامه المالية الأخري– هو المسئول عن التجار الأجانب في كل مدينة، خاصة في سبته وبجاية وتونس، فهو الذي يكتب إليهم داعياً للتجارة أو منبهاً على مخالفة[٣]، كما أن من مهام المشرف فيما يبدو مهام متصلة بالمكوس أو الرسوم المفروضة علي البضائع الموردة إلي المدن. وكان مكان وجود المشرف الطبيعي خاصة في العهد الحفصي في ديوان البحر حيث يشرف على عملية البيع

---

٧) البيذق: أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط١٩٧١م، ص٦٢، هوبكنز: مرجع سابق، ص٨٥.

١) ابن سعيد: المُغرب في حُلى المغرب، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الاولى١٩٩٧م، جـ١، ص٦٤، ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٥٨، ٢٩٩، هوبكنز: مرجع سابق، ص٨٥.

٢) عز الدين عمر موسى: النشاط الاقتصادي، ص٢٧٨، عبد الهادي التازى: مرجع سابق، جـ٦، ص ٧١،

- Abdellatif Sabbane: Op.Cit,p.٢٨١,٢٨٢.

obeikan.com

والشراء وتسليم الضرائب المستحقة، وذلك استناداً على إشارات له في بعض الوثائق الخاصة بأراغون[١].

كما كان هناك رئيس ديوان المراسي وقائد الأسطول وصاحب أشغال البحر، والذي كان مختصاً بتحصيل غنائم المعارك البحرية وتعهدها، وتعهد نفقات الأسطول وجنده، كما كان مسئولاً عن الأموال التي قد ينقلها الموحدون من وإلى بلاد المغرب عبر البحر، بالإضافة إلى الإشراف على ديوان المرسى وتحصيل ضرائب سكانه[٢]. ويبدو أن رئيس ديوان المراسي هو نفسه (ناظر الديوان) في العهد الموحدي، وقد ذكرت الرسائل في تلك الفترة أسماء ممن تولي ذلك المنصب، مثل عبد الرحمن بن أبي الطاهر الناظر بديوان افريقية[٣].

وهناك من يرى أن رئيس ديوان المراسي هو نفسه "ناظر المجابى" أو "متولي المجابى"، ودليلهم على ذلك أن هذا المنصب كان يُعبر عنه أحياناً باسم الجابى (Le gabella) في بعض المعاهدات الكاطلانية، ويشار إليه في بعض الوثائق بناظر الديوانة بالبلاد كلها. أما في الوثائق اللاتينية فقد تعددت الاصطلاحات، والكلمة العربية هي الجابي أو الوالي أو القاضي[٤].

والراجح أن وظيفة رئيس ديوان المراسي أو ناظر الديوان، هي ذاتها التي تحدث عنها الحسن الوزان باسم (مدير الجمرك)، وذكر الحسن الوزان أن مهمة صاحب هذه الوظيفة جمع الرسوم الجمركية المفروضة على البضائع التي تخرج من تونس

---

١) Un Traité conclu pour quinze ans entre Pierre III, roi d'Aragon et de Sicile, et Abou-Hafs, roi de Tunis, pp٢٨٦ – ٢٩١,

هوبكنز : مرجع سابق ، ص٨٥ ، ٨٦.

٤) أحمد عزاوي: رسائل موحديه (مجموعة جديدة)، جـ١، ص٣١٣، ٣١٤.

٣) رسالة من عبد الرحمن بن أبي الطاهر الناظر بديوان افريقية إلى حكومة بيزة، ص٢٣ – ٢٨.

) عبد الهادى التازى: مرجع سابق، جـ٦، ص٢٤٩، ٢٥٠.٤

للتصدير بحراً، وكذلك علي البضائع الواردة عن طريق البحر، وتسند هذه المهمة عادة إلى أحد اليهود الأغنياء. وكان يوجد مركز الجمارك علي بحيرة قناة حلق الوادي قرب تونس[١].

وكان ناظر الديوان له وظائف أخرى غير السابق ذكرها ، فقد كان يعد من الشخصيات النافذة في التراتبية السياسية والاجتماعية. فقد كان يحضر مراسيم عقد الاتفاقيات التجارية بين الحكومة الحفصية والبلدان الأجنبية، ويتدخل في مناقشة بنودها وإبداء رأيه فيها[٢]. ومنها متابعة المنازعات بين تجار بلاده والتجار الأجانب والعمل على حلها، وكذلك مراسلة الحكومات الأجنبية التي يقوم مواطنيها بالتعدي علي سفن أو مصالح المغاربة أو أذاهم، ومن أشهر قضايا التجارة البحرية التي قام بمتابعتها ناظر ديوان بلاد المغرب الأدنى هي قضية المسطحات، والتي اعتدى خلالها بعض السفن البيزيه على سفن تجارية مغربية التي كانت ترسو في ميناء تونس وتستعد للإقلاع لبلاد أخري، حيث خطفوا ثلاثة من تلك السفن ونكلوا بتجارها وركابها ونهبوا حمولتها، ولذلك أُرسلت أكثر من رسالة من حكام المغرب الأدنى من ضمنها رسائل من ناظر ديوان المغرب الأدنى ويُدعي عبد الرحمن بن ابي الطاهر[٣].

---

٧) الحسن الوزان: مصدر سابق، جـ٢، ص٧٩، ٨٠.

٢) الحسين بولقطيب: مرجع سابق ، ص ٦،

Mas Latrie ; Relations et Commerc, PP ٣٣٦ , ٣٣٧.

٣) رسالة من عبد الرحمن بن أبي الطاهر الناظر بديوان افريقية إلي حكومة بيزة، مؤرخة بـ ٥٩٦هـ، حول قضية المسطحات ، ص٢٣ – ٢٨، رسالة من السيد أبي زيد عبد الرحمن إلى حكومة بيشة، حول قضية المسطحات، نشرها Amari Michel في كتابه A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino، تحت رقم ٩، ص٣٣، ٣٤.

obeikan.com

ومن العاملين في إدارة المراكز التجارية البحرية أيضاً "الكتّاب"[١]، فقد كان لصاحب الأشغال كُتاب يقيدون المجابى والمكوس العامة، ويضبطونها بالشهود، ثم يرفعونها إلى الخليفة في خرائط فيختمها بخاتمه، وذلك حتى تُحفظ في المخزن[٢]. بالإضافة إلى ذلك فإن الإدارة المالية، وبالخصوص ديوان البحر كانت تضم عدداً من الُكتّاب (أو الكتبة)[٣]. ولقد تعرض الونشريسي من خلال النوازل والفتاوي الى وظيفة الكتبة وسماهم "الموثقين" الذين يخرجون في الجبايات المخزنية ويتولون كتابتها، كما كان يعهد إليهم بكتابة وثائق التجار والعقود وما شابه[٤].

---

٣) كان منصب الكاتب من المناصب المهمة في دولة الموحدين، ومما يدل على ارتقاء هذا المنصب في عهد الموحدين ، ذلك العدد الكبير من أئمة البلاغة والأدب الذين خدموا في قصور خلفاء الموحدين، والذين أصبحوا كتاب رسميين للدولة، بالإضافة إلى أعداد الرسائل الموحدية الكبيرة، والكتّاب كانت لهم درجات، ومستويات متفاوتة في الأهمية والقيمة، أنظر: ابن صاحب الصلاة: مصدر سابق، ص ٤١، ٤٢، ابن سعيد: المُغرب، جـ٢، ص١٢٨، ابن عذارى : البيان المغرب، قسم الموحدين، ص١٦٦،١٦٧،١٧٠،٢٢٥، أحمد الجمال: مرجع سابق، ص٢٤، محمد عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى١٩٩٣م ، ص٤٧٤.

٤) ابن عذارى: مصدر سابق، ص ٢٥٤، عز الدين عمر موسى : الموحدون في الغرب الإسلامي، ص١٦٩،

- Abdallah Laroui :Op.Cit, P.١٨٣.

٣) أبو العباس الغبرينى: مصدر سابق، ص٢٠٥، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص ٦٨.

٦) كمال السيد أبو مصطفي: جوانب، ص٨٤.

كان هناك مجموعة من المميزات والخصائص التي يجب أن تتوفر في الكاتب خاصة كاتب الوثائق، ومنها ألا يكتب الوثائق إلا من شُهد له في ذلك بحسن الخط وقوة الأسلوب واتساع في العلم، حتى يسهل على القاضي والحاكم عند رؤية خطه ولفظه فهم المحتوى بعيداً عن التدليس والتلبيس، انظر: ابن عبدون: مصدر سابق، ص١٣.

obeikan.com

وقد كان لتلك الوظيفة في دولة الموحدين خطة قائمة بذاتها نظراً لأهميتها ودقتها ويقوم بمهمتها الفقهاء الموثقون. وكان الموثقون يقومون بانجاز عقود الميراث والبيع والشراء بالإضافة لعقود الزواج والطلاق طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، فكان عملهم مزيجاً من عمل المحاكم والمأذونين وإدارة المساحة في عصرنا الحاضر(١). كما كانت وظيفة الكتاب معروفة حتى في أقصى الشرق في بلاد الهند والصين حيث كان هناك كتاب يقيدون كل ما على السفن التجارية من بضائع وركاب، وحصر ما نقص أو زاد على ما قيدونه في سجلاتهم عند عودة تلك السفن(٢).

ولم يكن الكتاب من جنسية مغربية فقط بل كان بعضهم من جنسيات أخرى، فكان لكل دولة يصل تجارها لموانئ المغرب الأدنى كتبة يتبعون هؤلاء التجار لتسهيل أعمالهم التجارية وتوثيقها، ومن أبرز هؤلاء الكتبة الذين برز اسمهم في بعض الوثائق الكاتب (كينوُ) وكان كاتب بيزي، والراجح أنه كان معروفاً لدي المسئولين في بلاد المغرب الأدنى وكذلك عند نظرائهم في بيزة وعند التجار من الطرفين، حتى أن الرسائل التي كانت ترسل من الجانب المغربي للجانب البيزي كانت تتضمن ما يمكن أن نطلق عليه أمضاء من هذا الكاتب أو شهادة حتى يتأكد البيزيون من صحة الرسالة(٣).

وكان كتاب التجارة الأوربية خاصة تجار مدينة جنوة يحرصون علي تدوين تاريخ السنة واليوم بل والساعة بالضبط في وثائق التجارة التي يكتبونها، ولذلك

---

١) محمد عادل عبد العزيز إبراهيم: مرجع سابق، ص٤٠.

٢) ابن بطوطة: مصدر سابق، ص٦٣١.

٣) رسالة من عبد الرحمن بن أبي الطاهر الناظر بديوان افريقية إلى حكومة بيزة، مؤرخة بـ ٥٩٦هـ، ص٢٣ – ٢٨، رسالة من عبد الرحمن بن أبى الطاهر ناظر ديوان تونس إلى حكومة بيزة، مؤرخة بتاريخ ٥٩٧هـ، ص ٣٨، ٤٢.

obeikan.com

كانت هناك أدواتهم التي استعانوا بها في ذلك المجال، مثل الساعه الشمسية والمزوله، ويبدو أن ذلك كان عادة متبعه عند جميع الكتاب(١).

كما كان منصب (الترجمان) أساسي لعمليات التجارة البحرية خاصة مع وجود تجار مُختلفين من حيث الجنسية واللغة(٢). ففي الديوان كان تتم عمليات البيع والشراء بين المغاربة والتجار الأجانب، لاسيما المسيحيين منهم، مع وجود مترجمين تعتمدهم هذه المؤسسة. وكان كثرة التجار الأجانب في التجارة المغربية استوجبت الإكثار من اتخاذ المترجمين، وكان كل جماعة تختار ترجمانها وعن طريقه يتم البيع والشراء في الديوان فيتردد اسمه في الرسائل الرسمية والشخصية. ويحرص الترجمان علي اطلاع جماعته علي حالة الأمن وعلي الأسعار(٣). ومن التراجمه الأجانب الذين ذكر اسمهم في وثائق التجارة البحرية البيزية في تلك الفترة المترجم (أزمات دفركا)(٤).

ومن الأمثلة البارزة على أهمية صاحب وظيفة الترجمان، أننا نجد بعض البجاويين يتوسلون بوساطة أحد رجالات بيزة لدي الموحدين ليصبح ترجماناً في الديوان بالبلاط، ويتعلق الأمر بالترجمان أحمد بن تميم الذي كتب إلى لتبارت فليول

---

(١) Steven A. Epstein : Op,Cit , p٢٤٣ .

٢)القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٥، ص٧٥.

٣) رسالة من الترجمان المغربي عثمان الترجمان إلي التاجر البيزي بانش بن كرص ، لتشجيه هو وأصحابه للتردد علي بلاد المغرب الأدنى للتجارة، نشرهاMichel Amari في كتابه A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino، تحت رقم= ١٦، ص٥٠ – ٥٢، عبد الهادى التازي: مرجع سابق، جـ٦، ص٢٤٩، عز الدين عمر موسى: النشاط الاقتصادي، ص٢٩٢.

٤) رسالة من التاجر الحاج صدقة الجلاد بتونس إلي التجار البيزيون سرفرسطان وسرففيان وسربلناط كرك وسرالبان، بخصوص معاملات تجارية ، نشرها Amari Michel في كتابه Diplomi Arabi Dell Archivio Fiontino، تحت رقم ١٩، ص٦٠، ٦٢.

Obeikan.com

الفرناج يلتمس الكتابة إلى القائد أبي السداد موفق بن عبد الله، والرسالة تحمل تاريخ أواخر ربيع الثاني ٦٠٤ هـ/ أواخر نوفمبر١٢٠٧م[١].

والراجح أن المغاربة قد امتهنوا مهنة الترجمان وعرفوا أكثر من لغة، ومارسوا تلك المهنة في الموانئ، وبرز منهم شخصيات كانت معروفة وذات مكانة عند مسئولي المغرب الأدنى، مثل وهاب الترجمان الذي كان مقرباً جداً لناظر ديوان تونس والمهدية يوسف بن محمد[٢]. ومن التراجمة التي تحمل أسماء مغربية أيضاً في تلك الفترة حسن بن علي الترجمان وعثمان بن أبي بكر الترجمان وقاسم بن علي الترجمان وسفيان ابن هلال الترجمان واحمد قطران الترجمان[٣]، وكذلك الترجمان عثمان[٤]، وعليّ بن باديس وعليّ بن مستورة[٥]، والترجمان عباد اخو وحاد[٦].

وقد تعدت وظيفة المترجم الترجمة كوظيفة أساسية لتأخذ صفة الشهادة على الوثائق والعقود المكتوبة، حيث كان على المترجمين التوقيع على الوثائق المهمة والرسمية والرسائل المُرسلة لحكومات دول أخرى ، وخير مثال علي ذلك هو توقيع

---

١) عبد الهادى التازي: المرجع السابق، جـ٦، ص٢٠٥.

٢) رسالة من يوسف بن محمد صاحب ديوان تونس والمهدية إلى أحد كبار تجار بيزة، ص ٣١، ٣٢.

٣) شهادة إثبات باعتداء المراكب البيشانية على مركب للمسلمين في شهر شوال سنة ٥٩٦ هـ ، ص٤٣، ٤٤

٤) رسالة من الترجمان المغربي عثمان الترجمان إلي التاجر البيزي بانش بن كرص، ص٥٠ – ٥٢.

٥) رسالة من التاجر المغربي مناد بن عبد الله إلي التاجر البيزي الكبير باج، بخصوص معاملات تجارية، نشرها Amari Michel في كتابه A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino، تحت رقم ١٧، ص٥٥، ٥٦.

٦) رسالة من التاجران عيسى وعبد الله الجلادين بتونس إلى التاجر البيزاني بان فين، بخصوص معاملات تجارية، نشرهاMichel Amari في كتابه A Diplomi Arabi Dell Archivio Fiorntino، تحت رقم٢٠، ص٦٣، ٦٤.

أكثر من مترجم مغربي علي شهادة إثبات مُرسلة لحكومة بيزة لتوثيق حادثة المسطحات البيزيه التي هجمت علي ميناء تونس في عهد الموحدين[١]. كما أن ألتراجمه قاموا بمهنة الشهادة على ما يُدفع من أموال في المعاملات التجارية بين التجار المغاربة ونظرائهم الأجانب[٢]، كذلك تشير بعض الوثائق أن المترجم كان في بعض الأحيان يقوم بتثمين السلع التي تُعرض عليه أو تقدير ثمنها[٣].

كما وُجد (الوزان أو القباض) وهو المسئول عن تحديد وزن ومكيال السلع، وكان علي القاضي متابعة هؤلاء القباضيين وإجبراهم علي القسط في الميزان وألا يهينوا أحداً ولا يتعدوا عليه في شيء[٤].

أما الذين كانوا يتولون تعبئة أو تفريغ السفن في الموانئ فهم (الحمالون)، ورغم أن هذه الوظيفة كانت من الوظائف الدنيا في ترتيب وظائف إدارة وتشغيل المراكز التجارية البحرية آنذاك إلا أنها كانت ذات أهمية كبيرة في عملية التصدير والاستيراد، فهم العامل الأساسي في تعبئة أو تفريغ السفن التجارية بالسلع المختلفة، لذلك ذُكر أصحاب تلك الوظيفة في أكثر من وثيقة ترجع لفترة البحث، خاصة فيما يتعلق بأجرهم وتحديده مسبقاً[٥]. وكان يُشدد عند اختيار الحمالين علي

---

١) شهادة اثبات باعتداء المراكب البيشانية على مركب للمسلمين في شهر شوال سنة ٥٩٦ هـ، مؤرخة بتاريخ ٥٩٧ هـ، ص٤٣، ٤٤، Un Traité de paix et de commerce conclu pour dix ans entre l'empereur Frédéric II, roi de Sicile, et Abou-Zakaria-Yahia, roi de Tunis , pp١٥٣ – ١٥٥

٢) رسالة من التاجر المغربي مناد بن عبد الله إلي التاجر البيزي الكبير باج، بخصوص معاملات تجارية، ص٥٥، ٥٦.

٣) رسالة من التاجران عيسي وعبد الله الجلادين بتونس إلي التاجر البيزاني بان فين، بخصوص معاملات تجارية، ص٦٣، ٦٤.

٤) ابن عبدون: مصدر سابق، ص٧.

٥) Traité de paix et de commerce conclu pour dix ans entre Jacques Ier, roi d'Aragon et de Majorque seigneur de Montpellier, et Abou-Abd-Allah-Mahommed-El-Mostancer-

وجه الخصوص، فيجب أن لا يكونوا من عبيد البربر ولا من الحشم ولا من يُعرف أنه يتعدي علي أموال الناس، ومن أُوقع به وفي يده شيء من ذلك أخذ منه فإن رفض حُمِل إلى صاحب المدينة أو القاضي لمحاكمته[١].

ومن الوظائف التي كان لها دور في تسيير أمور التجارة البحرية (القنصل)[٢] وهو ممثل الدولة في الخارج، وكان يوجد مبدئياً في أي مكان يقطن فيه مسيحيون حيث يملكون مؤسسة تجارية دائمة. وكان الفندق مكان إقامة القناصلة حيث يباشرون مهامهم، وكانوا يعينون من طرف سلطات بلادهم، وكان بإمكانهم تعيين خلفائهم أو مساعديهم، بالإضافة إلى أنهم كانوا مكلفين بتسيير شئون جاليتهم والدفاع عن مصالح الغائبين والحاضرين إزاء الديوان والحكومة المغربية. لقد كان بإمكان القناصلة المثول أمام الحاكم المغربي لعرض الشكاوي وملاحظات مواطنيهم، كما كان مسموحاً للقناصلة الذين يقطنون مدناً أخرى غير العاصمة أن يقدموا للعمال مرة في كل شهر. وقد كانت مدة عملهم جدَّ محدود، فقد كانت تتراوح بين سنة أو سنتين لدي البندقيين والمرسيليين، وفي جنوة كانت سلطة

Billah, roi de Tunis, pp٢٨٠ – ٢٨٤ , Traité conclu pour quinze ans entre Pierre III, roi d'Aragon et de Sicile, et Abou-Hafs, roi de Tunis, pp٢٨٦ – ٢٩١, Abdellatif Sabbane : Op.cit , p .٣٠٠,

عبد الهادي التازي: مرجع سابق، جـ٦، ص٢٥٤

١)ابن عبدون: مصدر سابق، ص٢٦، ٢٧.

٢) القناصل هم النواب الذين يمثلون دولهم بالخارج في عرف السياسة، والقناصل جمع قنصل، ولفظ قنصل استعارته اللغة الفرنسية من أمها اللاتينية ونظامه في أصله يتصل بأوائل التاريخ المسيحي بل كان موجوداً قبله عند الرومان وهم الذين ابتكروه، ووظيفة القنصل عندهم إذ ذاك هي الحكم المطلق وتعيينه يكون بطريقة الانتخاب مع رفيق له بمثل لقبه ليباشر الشئون العامة مدة عام ويكون لهما من السلطة ما للملوك المتوفين، انظر محمد بن خوجة: هل لتونس نواب سياسيون يمثلونها بالخارج قبل عصر الحماية، المجلة الزيتونية، المطبعة التونسية، المجلد الأول، الجزء السابع، عدد ٥٧، مارس ١٩٣٧م، ص٣٣٥، ٣٣٦.

obeikan.com

المستشار تنتهي بعد سنتين. وكان قناصلة إفريقية يستعينون بكاهن وببعض الخدم يشغل أحدهم وظيفة كاتب علاوة على حصانين، فقد كانت هذه وضعية القناصلة في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، كما كانت أجورهم تتكون من جزء من حقوق القنصلية والبحرية التي تمتلكها الدولة. وقد كان لقناصلة القطلان التفويض حول دخل الديوان في تونس وفي بجاية، وقد ظهرت منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، في قوانين مرسيليا قاعدة سنها التشريع الفرنسي تنص علي ألا تكون للقنصل مصالح شخصية فيما يخص التجارة والسمسرة[١].

ب – العاملون بالوظائف الرقابية:

كانت شئون التجارة البحرية تخضع لأكثر من طرف ومسئول لرقابتها ومتابعة أعمال البيع والشراء، فكانت الشئون البلدية والتجارة راجعة بالنظر لا محالة إلى القاضي لاسيما قاضي قضاة المدينة أو رئيس القضاة أو قاضي الجماعة. فقد كان

---

١) اتفاقية صلح بين الخليفة الحفصي ابي يحيي زكرياء وحكومة بيزه في عام ٧١٣ هـ، ص٨٦-٩٧،

Un Traité de Paix et de commerce conclu pour quinze ans par l´envoyé des consuls de la république de Génes et le roi almohade de Maroc , Abd-el-Moumen , p١٠٨ , Un Traité de paix et de commerce négocié pour quarante ans par Pierre Delfino entre la république de Veise et le roi de Tunis , pp١٩٦ – ١٩٩ ,Un Traité de paix et de commerce conclu pour dix ans entre Jacques Ier, roi d'Aragon et de Majorque seigneur de Montpellier, et Abou-Abd-Allah-Mahommed-El-Mostancer-Billah, roi de Tunis, pp٢٨٠ – ٢٨٤ , UnTraité de commerce , conclu dix ans, entre Abou-Abd-Allah Mohammed Monstancer-Billah, roi de Tunis, et la république de Génes, par Guillelmino Cibo , pp١١٨ – ١٢١, Un Traité conclu pour quinze ans entre Pierre III, roi d'Aragon et de Sicile, et Abou-Hafs, roi de Tunis, pp٢٨٦ – ٢٩١, UnTraité de paix et de commerce pour quarante ansentre Marin Morosini, doge de Venise, et Abou-Abd-Allah el-Mostancer-Billah, Roi de Tunis et de Tripoli, négocié à Tunis par philippe Giulianí, pp١٩٩ – ٢٠٢, Convention entre Lucheto Pignoli, ambassadeur de la ، république de Gênes, et les commissaries nommés par le roi de Tunis, pp١٢٥ – ١٢٧

عبد الهادى التازى : مرجع سابق ، جـ٦ ، ص٢٥٣ ، جـ٥ ، ص٢٢٨-٢٣٠ .

David Abulafia ; Pisan Commercial Colonies and Consulates in Twelfth-Century Sicily , The English Historical Review, Vol. ٩٣, No. ٣٦٦ (Jan., ١٩٧٨) , p ٦٨ .

لقاضي الجماعة دور كبير في مراقبة ومتابعة عمليات البيع والشراء بين التجار المحليين والأجانب، والوقوف ضد أي خرق للتقاليد والعادات التجارية المتعارف عليها، مثل ألا يذهب التجار المحليين للتجار الأجانب في فنادقهم لعقد الصفقات بل العكس يجب أن يحدث، وكان قاضي الجماعة عمر بن عبد الرفيع كتب على العطارين عقداً أن لا يفعلوا ذلك وشهد في ذلك العقد الشيخ أبو عبد الله وغيره[١]. ومن مهام القاضي المرتبطة بالتجارة البحرية الإشراف على حماية الموانئ من أي تعديات سواء بالبناء أو البيع فإنه موضع مجتمع التجار والمسافرين[٢].

ومن أجل مساعدة السلطة في أداء واجبها، فقد هيأ قاضي القضاة مجموعة من كبار القضاة، وموظفين مدنيين يساعدون في حفظ النظام العام، ومراقبة التجارة والتعامل مع التجار الأجانب[٣]. ومن هؤلاء شهود العدول والمحتسبة.

وكان شهود العدول[٤] من الوظائف المهمة، حيث كانت من الوظائف المرغوب فيها، وبالإضافة إلى ذلك كانت تمثل أحياناً مرحلة انتقالية للارتقاء إلى خطة أعلى أو فترة تدريبية قبل تولي القضاء، وقد كان العدد الإجمالي لأولئك العدول يتغير بحسب مشيئة قاضي الجماعة أو السلطان. فكانت تجري عدة مناقشات وعدة تقلبات بخصوص التخفيض أو الزيادة في ذلك العدد. فمثلاً قاضي الجماعة ابن يعقوب في القرن الثالث عشر كان لا يريد تعيين العدول إلا إذا دعت الحاجة الحقيقية إلى ذلك، لأن تعددهم يعتبر مضراً في نظره. ولم يتردد حسبما قيل في رفض

---

١) رسالة من عبد الرحمن بن أبي الطاهر الناظر بديوان افريقية إلى حكومة بيزة، مؤرخة بـ ٥٩٦ هـ، ص٢٣ – ٢٨، الأبي : مصدر سابق، جـ٤، ص١٨٠، أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق ، ص١٨٣.

٢)ابن عبدون: مصدر سابق، ص٢٦، ٢٧.

٣) أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١٨٤.

٤) رسالة من عبد الرحمن بن أبي الطاهر الناظر بديوان افريقية إلى حكومة بيزة، ص٢٣ – ٢٨، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص ٦٨.

obeikan.com

طلب السلطان نفسه الذي أوصاه بتعيين أحد المرشحين. وأخيراً تجدر الملاحظة إلى أن بعض أولئك العدول كانوا ملحقين بمختلف الإدارات السلطانية، لاسيما ديوان البحر وغيره من المصالح المالية الأخرى. وقد كان أولئك العدول المعرفون باسم "شهود المخزن" يتمتعون بوضعية أحسن من وضعية أغلب زملائهم الآخرين. ولكن خضوع العدول على مثل ذلك النحو لسلطة غير دينية ولمصالح دنيوية، لم يكن دائماً بمعزل عن انتقادات ذوي النوايا السيئة أو المتورعين. فقد اضطر ذات يوم أحد الفقهاء، جواباً علي سؤال طرح عليه إلي التأكيد علي أن الصلاة وراء "شهود المخزن" صحيحة[١].

والراجح أن وظيفة شهود العدول شملت أيضاً الشهادة علي عقود التجارة البحرية لاسيما أن هؤلاء الشهود كانوا من الفقهاء والشيوخ الأجلاء مثل الشيخ أبو عبد الله وغيره[٢]. ويجوز الشهادة لسماسرة في ما بين البائع والمشتري، إن لم يكن في شهادتهم ما يتهمون فيها من زيادة الجعل أو فسخ بيع، ويجوز شهادة الدلالين أيضاً علي ما يقع في عقد ما باعوه وأخذوا عليه أجرة عاملة إذا كانت فيهم العدالة موجودة[٣]. كما شملت وظيفة شهود العدول الشهادة والتوقيع علي رسائل وشهادات إثبات مُرسلة لحكومات أجنبية في قضايا ومنازعات تجارية مهمة بين الطرفين، مثل قضية المسطحات البيزية التي استولت علي سفن شحن في ميناء

١) الونشريسي: مصدر سابق، جـ١، ص١٤٢، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص١٣٨ - ١٤٠.

٢)الأبي: مصدر سابق، جـ٤، ص١٨٠.

٣)البرزلي: فتاوى البرزلي (جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام)، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى٢٠٠٢م، جـ٤، ص٢٣٠.

obeikan.com

تونس، وقد وقع علي الرسائل وشهادة الإثبات المُرسله للحكومة البيزية أكثر من شاهد عدل تابع لديوان البحر في بلاد المغرب الأدنى[١].

أما وظيفة مراقب السوق (المحتسب أو صاحب السوق)[٢] فكانت من الوظائف المهمة في تلك المرحلة أيضاً، والذي حفظت نشاطاته في كتب الحسبة وهي (دليل مكتوب باليد لاستخداماته)، ومن الناحية النظرية كانت مهمة المحتسب: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" بين جماعة المسلمين، وتحت هذا العنوان العريض فإن من واجبه أن يراقب ساحة السوق[٣].

ويشير ابن خلدون إلى بعض من اختصاصات المحتسب المتعلقة بموضوع البحث فيقول: "منع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل....ولا يتوقف

---

١) رسالة من عبد الرحمن بن أبي الطاهر ناظر ديوان تونس إلى حكومة بيزة، مؤرخة بتاريخ ٥٩٧هـ، ص ٣٨، ٤٢. شهادة اثبات باعتداء المراكب البيشانية على مركب للمسلمين، مؤرخة بتاريخ ٥٩٧هـ ، ص٤٣ ، ٤٤ .

٢) ظلت الحسبة بالمغرب قبل عصر الموحدين من اختصاص القاضي، فهو الذي كان يتدخل في ما يُرفع إليه من مخالفات أخلاقية أو اقتصادية، بينما كانت في الأندلس خطة مستقلة ومتطورة. ومع مجيء الموحدين تم اعتماد الحسبة فأصبح يباشرها محتسبون يعينهم القضاة، لكن الموحدين حصروها في مجال مراقبة الأسواق، فعرفت عندهم بحسبة السوق أو حسبة الطعام ورغم اهتمام حكام المغرب لاسيما المغرب الأدنى بخطة الحسبة في تلك الفترة، فإن المحتسبة في المغرب في تلك الفترة اعتمدوا فيما يبدوا علي المؤلفات الأندلسية لأنه لم يعثر حتى الآن علي أي كتاب للحسبة من تأليف أحد المغاربة، وربما كان ذلك لأن الحسبة كانت في الأندلس في تلك الفترة تمثل عهدها الذهبي، وربما كان ذلك أيضاً لأن اغلب من تولوا الحسبة في تلك الفترة كانوا أندلسيين، انظر: محمد عادل عبد العزيز إبراهيم: مرجع سابق، ص٤٤، محمد المغراوي: الموحدون وأزمات المجتمع، مطبعة جذور للنشر، الرباط، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م، ص٧٧.

٣) أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١٨٤ .

Nelly hanna ; money , land and trade ' an economic history of the muslim Mediterranean ', I.B. Tauris & Co Lt, London ٢٠٠٢ , p١٦٤ .

obeikan.com

حكمه على تنازع أو استعداْ بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه وليس له إمضاء الحكم في الدعاوي مطلقاً بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها وفي المكاييل والموازين"[١].

وكان للمحتسب دور كبير في الرقابة علي الموانئ يكشفه ابن عبدون من خلال نصائحه للمحتسب في موانئ المغرب ومنها موانئ المغرب الأدنى، ومن تلك المهام التي يكلف بها المحتسب متابعة شحن السفن بالسلع خاصة في الأيام العاصف، وتسهيل عبور السلع والأشخاص بين السفن والميناء، كذلك متابعة الحمالين وعدم إشراك من تحوم حوله الشكوك من العبيد أو الحشم في تلك المهنة، ومتابعة أكرية القوارب والسفن ومنع القوارب والسفن التي اشتهر استخدامها في أفعال أخلاقية سيئة كشرب الخمر فيها من العمل، كذلك كان من وظائف المحتسب حماية الموانئ من التعديات علي أراضيها سواء بالاستيلاء أو البيع[٢].

أما أعوان المحتسب فهم "الأمناء" الذين يساعدونه في الرقابة على السوق، وما به من معاملات تجارية ومالية، وهذا ما نستشفه من كلام المراكشي، فيذكر أن المنصور: " كان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق، وأشياخ الحضر، في كل شهر

---

١) المقدمة: ص١٥٨

٢)ابن عبدون: مصدر سابق، ص٢٦، ٢٧.

وكان تعيين المحتسب بصفات يجب أن تتوفر فيمن سيتولى هذا المنصب، فيجب أن يكون فقيهاً في الدين نزيه النفس، مشهور بعدالته وحلمه وفطنته، عارفاً بجزئيات الأمور غير طماع قادر على احترام الاخرين وعدم استخدام العنف في عمله ، انظر : السقطى : مصدر سابق، ص٥، ٦، ٩، الشيزرى: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشر وتحقيق السيد الباز العرينى ، لجنة التأليف ١٩٤٦م ، ص٦، ابن عبدون : مصدر سابق، ص٢٠، الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية تحقيق أحمد مبارك البغدادي، دار ابن قتيبة، الكويت، الطبعة الأولى١٩٨٩م ، ص٣١٦، محمد المنوني: حضارة الموحدين، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى١٩٨٩م، ص١٨٤.

مرتين، يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم"[١]. وكان وظيفة الأمناء معروفة في موانئ أخرى خارج بلاد المغرب، فقد كان هناك أمناء مهمتهم حصر ما على السفن الراسية في ميناء الإسكندرية لتقدير ما عليهم من ضرائب ومكوس[٢].

وتكشف المعاهدات عن بعض الأعراف والتعليمات الخاصة بالأمن الحضري وشرطة الموانئ والتي كانت مطبقة علي المواطنين الأصليين وعلي الأجانب، وكانت شرطة الموانئ من اختصاص مدير الديوانة الذي كان له الحق في إغلاق الموانئ وتحديد أوقات انتقال البضائع من الموانئ إلى الرصيف ومن الرصيف إلى الموانئ. وقد كان تجاوز سلطة موظف عربي وراء قرار ملك تونس منح امتياز (Jean Dandolo) لتجديد معاهدات جمهورية البندقية القديمة:" بأي حال من الأحوال لا يمكن تعذيب أي بندقي". إن معاهدات دول أخري لم تتضمن هذا الامتياز، كما أن جمهورية البندقية تخلت عنه في الاتفاقيات التي أبرمها سفراؤها[٣].

من جانب آخر تعامل تجار المغرب في الموانئ التي رحلوا اليها مع بعض المسئولين المكلفين بأمور التجار البحرية، ففي ميناء مدينة الإسكندرية كان هناك أمناء يطلعون إلي السفن من قبل السلطان لتقييد جميع ما جُلب فيه. حيث يحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً وتكُتب أسماؤهم وصفاتهم وأسماء

---

١) المعجب: ص٢٣٦، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٤٢، ص٢١٩، احمد الجمال : مرجع سابق، ص١٣٢، ١٣٣.

- Abdellatif Sabbane: Op.Cit ,pp.٢٧٥,٢٧٦.

٢) ابن جبير: مصدر سابق، ص١٣،

٣)

UnTraité de paix et de commerce pour quarante ansentre Marin Morosini, doge de Venise, et Abou-Abd-Allah el-Mostancer-Billah, Roi de Tunis et de Tripoli, pp١٩٩-٢٠٢, UnTraité négocié par Jean Dandolo, ambassadeur vénitien, renouvelant pour quarante ans le traité de ١٢٥١. Lettre d'Abou-Abd-Allah-Mahommed el-Mostancer-Billah, Roi de Tunis, pp٢٠٣ – ٢٠٦.

عبد الهادي التازي: مرجع سابق، جـ٥، ص٢٤٥.

بلادهم، ويسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض (الدنانير والدراهم) ليؤدي ما عليه من ضرائب، كذلك كان هناك عاملون بديوان البحر سماهم ابن جبير بأهل الديوان، بالإضافة إلى قاضي المدينة وحاشية السلطان الذين كانت مهمتهم الرقابة والاستعلام والتفتيش(١).

وكان تحصيل الرسوم الجمركية في ميناء دمياط وإدارته علي شاكلة الإسكندرية، أما مينائي رشيد والبرلس، فكانا يدخلان في اختصاص نائب الإسكندرية الذي كان يقوم بتعيين مندوبين من قبلة لتحصيل الرسوم المقررة(٢). وكان يتولي عيذاب وال من قبل سلاطين المماليك، ينظر في شئون تحصيل الرسوم وناظر من قبلهم أيضاً ، ولقد تعمد سلاطين المماليك أن يكون لهم نصيب في الإشراف علي هذا الميناء نظراً لما كانت له أهمية من الناحية التجارية، فعينت والياً مصرياً الي جانب حاكمها البجاوي(٣).

كما كان هناك الحمالون موجودون في كل ميناء ، وهم من العاملين الأساسيين في حركة التجارة البحرية بكل الموانئ(٤). كما كان هناك منصب لأحد الأشخاص يسمى (منصب الشد)– تعني التفتيش والمراقبة والتوجيه– ومتولي هذه الوظيفة (الشاد) مضافاً إليها الاختصاص، لذلك فقد كان "شد البحر" هو متولي الإشراف علي الميناء ومراقبة ما يتحصل من الميناء من الرسوم ومعاملة التجار بالحسني، وتوليته بتوقيع شريف وهو ما يعادل في أيامنا عمل الجمارك(٥).

---

١)ابن جبير: مصدر سابق، ص١٣.

٢) محمد عبد الغني الأشقر: مرجع سابق، ص٢٤٣.

٣) محمد عبد الغني الأشقر: المرجع السابق، ص٢٣٣.

٤) المازري: مصدر سابق ، ص ١٠٨.

٥) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١٢، ص٤٥٧، جـ١٥، ١٩٣.

obeikan.com

إذن انقسم العاملون بالمراكز التجارية إلى قسمين رئيسيين القسم الأول هم العاملون بالوظائف الإدارية، والذين كانوا يتبعون الكيانات السياسية التي قامت بالمنطقة ومهمتهم تسيير حركة النشاط التجاري البحري بمنطقة المغرب الأدنى ومن هؤلاء " صاحب الأشغال" وهو بمثابة وزير المالية . وكذلك المشرف ورئيس ديوان المراسي وقائد الأسطول وأيضاً "الكتّاب" والتراجمة، كما وُجد الوزان أو القباض والحمالون. كما كان لقناصل الدول الأجنبية بالمغرب الأدنى دور في تسيير أمور التجارة البحرية للتجار الأجانب التابعين لدولتهم. أما القسم الثاني من العاملين بالمراكز التجارية فهم العاملون بالوظائف الرقابية، وهم القضاة ومعاونيهم مثل شهود العدول والمحتسبة والأمناء.

ثانياً - العاملون على السفن التجارية:

كان العاملون على السفينة متعددون المهام والوظائف، حيث كان هناك الربان أو الناخذا، وكذلك باقي البحريون الذين تعددت وظائفهم ومهامهم، وسوف نعرض لهؤلاء فيما يلي:

أ – الربان:

يشير ابن جبير إلى أن الرُّبان في الاصطلاح الملاحي في البحر الأحمر يقابل(الرائس) أي الرئيس في اصطلاح الأندلس والمغرب[1]. كما لاحظ ذلك

---

١)ابن جبير: مصدر سابق، ص٥٠، ٢٥٨، رسالة من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عدن إلى خاله عروس بن جوزيف الأرجواني المهدوي في مصر، ص ٤٥٤، ٤٥٥، رسالة ثانية من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عدن إلي خاله عروس بن جوزيف الارجواني المهدوي في مصر، ترجمها عن العبرية المؤرخ جواتين، ,NO TS AS ١٥٦ ٢٣٧, Published in Goitein. S.D ; Portrait of a Medieval India Trader, Vol. ٥٠, No.٣، ص ٤٥٥ ، ٤٥٦، رسالة من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عيذاب إلي أولاده في مصر، ص ٤٥٦.

رحالة مغربي آخر هو ابن بطوطة بعد ابن جبير بقرن ونصف القرن، إذ يقول في رحلته" وهم يسمُّون رئيس المركب الرُّبان. ولا يزال أبداً في مقدم المركب ينبه صاحب السكان علي الأحجار، وهم يسمُّونها النبات"، وحسب كلام ابن بطوطه فالربان دائماً يكون موضعه في مقدمة السفينة، لاستكشاف الأخطار التي يمكن أن تواجهها السفينة في طريقها، وإرشاد باقي البحارة لتوجيه السفينة للطريق الصواب بعيداً عن هذه المخاطر(١).

والراجح أن وظيفة (الربان) هذه كما أشار لها ابن بطوطه هي نفسها وظيفة (الرباني) الذي تحدث عنه الإدريسي كأحد العاملين على ظهر السفينة والذي يجلس بمقعد بأعلى الصاري الأمامي للسفينة ويقوم بإرشاد باقي العاملين على السفينة وتوجيههم للطريق الصحيح، وأن الإرشاد والتوجيه هي الوظيفة الأساسية عند الربان في أكثر من فترة تاريخية، رغم تغيير بعض المرادفات أو المسميات(٢).

وهناك من يري أن الربان وهو قائد السفينة يختلف في المصطلح عن الناخذا الذي يعتبره صاحب هذا الرأي هو صاحب المركب وليس قائدها فقط. والراجح أن سبب عدم الفصل في المعنى بين تلك الألقاب هو دخول بعض الألفاظ الملاحية الفارسية على علوم المسلمين، فنجد مثلاً أن لقب (أشتيام) كان يطلق على رئيس ملاحي السفينة، في حين أن الربان أو الريس هو قائد السفينة، أما الناخذا وجمعها نواخيذ هم أصحاب السفن أو مالكيها وكلها كلمات فارسية الأصل(٣).

وقد قسم ابن ماجد ربابنة السفن ثلاث درجات هي: "أدناهم درجة هو ذلك الذي يسلّم السفينة أحيانا ويخطئ أحياناً؛....والذي يليه ذلك المعلم الذي درب

- Goitein. S.D ; Portrait of a Medieval India Trader, pp٤٥٠ – ٤٥٤ .

١) رحلة ابن بطوطة: ص٢٤٥.

٢) ابن جبير: مصدر سابق، ص٢٥٨، الإدريسي: مصدر سابق، ص١٣٧.

٣) ابن بطوطه: مصدر سابق، ص١٠١، أنور عبد العليم: مرجع سابق، ص٢٨.

علي الذهاب إلي مكان معين فقط ولم يترك أثراً بعد موته. أما ثالث هؤلاء وأعلاهم درجة فهو الذي لم يخف عليه شيء من مشكلات البحر، ويضع علْماً ينتفع به الناس في حياته وبعد مماته. ويشترط ابن ماجد فيمن يمتهن وظيفة الربان أن يعرف المنازل والأخنان والمسافات والقياس والإشارات وحلول الشمس والقمر والإهتداء بالنجوم، والرياح ومواسمها ومواسم البحر، وآلات السفينة وما تحتاج إليه وصيانة تلك الآلات. كما ينبغي أن يكون عارفاً بجميع السواحل والموانئ وإشاراتها؛ ومد البحر وجزره في كل طريق(١).

وتذكر بعض المصادر الصفات الشخصية التي يجب أن تتوفر في الربان المعلم الماهر، ومنها أن يتبع نهجاً خاصاً في سلوكه مع رفاق الرحلة، فعليه أن يسمع جميع أقوالهم ويأخذ ما يراه ويدع الرديء منها؛ بالإضافة إلى أن يكون حازما قويا في قوله لين الطبيعة شجاعاً صبوراً تقياً عادلاً، وان ينهي جميع الركاب عن كثرة المزاح في البحر حيث لا يأتي منه إلا الشر والعداوة. كما يجب أن يكون مطاع الكلمة في السفينة وبالإضافة إلى ذلك كله أن يكون نومه قليلاً(٢). ومن أشهر الربابنة المغاربة الذين عاشوا في القرن السادس المعلم عبد العزيز بن أحمد المغربي(٣).

ب- البحريون:

يستعمل ابن جبير كلمة (النواتية) التي تقابل كلمة (البحريين) في المغرب. والكلمة لاتينية من أصل يوناني(٤). وقد ظلت هذه الكلمة معروفة في بلاد المغرب

١) الفوائد : ص٦، ٧، ٥٧، ٥٨، ٦٧، شوقي عبد القوي عثمان: تجارة المحيط الهندي، ص٩٧-١٠١.

٢) الفوائد: ص٦، ٧، ٥٧، ٥٨، ٦٧، شوقي عبد القوي عثمان: تجارة المحيط الهندي، ص٩٧-١٠١.

٣) ابن ماجد: المصدر السابق، ص٤

٤)ابن جبير: مصدر سابق، ص١١١.

طوال فترة البحث وما بعدها، حيث أن النواتية أو النوتية هم من كانوا يقومون بالإبحار بالمركب أو السفينة من الناحية العملية تحت إشراف الناخذا أو الربان، وكان أصحاب المراكب والسفن يقوم باستئجارهم لأداء هذه المهمة[١].

وقد ذكر ابن خلدون أن أهل المغرب خاصة المغرب الأدنى كانوا بحارة مهرة نتيجة أن مدنهم تقع علي سواحل البحر، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن لذلك كانوا مهرة في ركوبه. هذا التمرس وما ترتب عليه من شهرة بحرية للمغاربة، أشادت به المصادر التاريخية وكتب الرحالة ليس في بلاد المغرب فقط ولكن في المشرق أيضاً. فيذكر المقريزي مثلاً أن فقراء المغاربة الذين وجدوا في القاهرة قد أكرههم الفاطميون على الخدمة دون تمييز، في الأسطول المصري لكونهم يتمتعون بسمعة حميدة، وأيضاً لشهرتهم في ميدان البحر. ويتعلق الأمر هنا بأهل إفريقية على الخصوص. أما ابن سعيد المغربي فقد ذكر أن الأساطيل كانت وقفاً على المغاربة لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر. كما أن العدد الأعظم من البحريين (نواتية الأسطول) في العصر الفاطمي كانوا مغاربة عرفوا بمهارتهم في قيادة السفن والملاحة في البحر منذ وقت مبكر[٢]، مثل ابن وسيم الإطرابلسي أحد أرباب البحر والمراكب في زمن المعز لدين الله الفاطمي(٣٤١ – ٣٦٥هـ/٩٥٢ – ٩٧٥م)[٣]، وذكر مارمول كاربخال أيضاً أن طائفة من سكان مدينة صفاقس كانوا يضربون في

١) الونشريسي: مصدر سابق، جـ٨، ص٢٩٨.

٢) المقريزي: المواعظ، جـ١، ص٣٦٨، المقري: مصدر سابق، جـ٣، ص١١١، جواتين: مرجع سابق، ص٢٤٥، عبد المجيد بهيني: المغاربة والجهاد البحري ضد الصليبيين الإسلامية، مجلة التاريخ العربي، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، العدد ١٥ صيف ٢٠٠٠، ص٩٩.

٣) الجوذري: سيرة الأستاذ جوذر، وبه توقيعات الأئمة الفاطميين، تحقيق محمد كامل حسين– محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة د.ت، ص٨٧، السيد عبد العزيز سالم، احمد مختار العبادي: مرجع سابق، ص٧٥.

البحار[١]. وقد اشتهر أهل سوسة بأنهم بحارة مهرة على السفن التجارية، وقد ظلت شهرتهم هذه مستمرة حتى عصر الحسن الوزان، حيث كانوا يذهبون علي سفن التجارة البحرية الذاهبة إلى الشرق. كما كان الكثير من سكان قصر محرس الواقع عند مدخل خليج قابس بحارة وصيادون مهارون يتاجرون مع جزيرة جربة، وأغلب رزقهم من العمل في البحر[٢].

وكان من وظائف البحريين رصد الطريق أمام السفينة واستطلاع البحر وتحذير ركاب السفينة من أي طارئ يطرأ في البحر من أعلى برج بالسفينة أو حتى بأحد حواف السفينة[٣]. ومن البحارة (صاحب السُكان) وهو الذي كان يتولى توجيهه الدفة، وكان يقوم بهذا التوجيه بُناءً على تعليمات الرُبان الذي يراقب البحر من مقدمة السفينة، ومن ثم يأمر صاحب السُكان بتوجيهه يميناً أو يساراً[٤].

من جانب آخر يجب ملاحظة أن العمل في الرحلات التجارية البحرية بالنسبة لسكان حوض البحر المتوسط لاسيما المغرب الأدنى لم يكن مقترن بالضرورة بارتفاع المستوى المعيشي لتلك العناصر، بل على العكس فقد يكون الحرمان أساساً للقيام بهذا الدور، فإن الشحن البحري هو عمل للفقراء. وهذا يفسر امتناع بحارة البحر المتوسط التقليديين عن الذهاب إلى البحر في الصيف عندما يكونون قد وجدوا شيئاً أفضل يفعلونه في البر في الشتاء السابق[٥].

إذن مما سبق يمكن القول أن العاملين على ظهر السفن التجارية في تلك الفترة انقسموا إلى الربان أو الرائس، ووظيفته قيادة السفينة وتوجيه العاملون عليها،

---

١) مارمول كاربخال : مصدر سابق ، جـ٣ ، ص٩٤ .
٢) وصف افريقيا: جـ٢، ص٨٣، ٨٤، ٩٣.
٣) ابن جبير : مصدر سابق ، ص٢٩٣ ، ٢٩٤ .
٤) ابن بطوطه: مصدر سابق، ص١٠١، أحمد الشامي: مرجع سابق، ص١٤١.
٥) جوزيف شاخت، كليفورد بوروورث: مرجع سابق، ص٢٨٨، ٢٨٩.

obeikan.com

وكذلك البحريون أوالملاحون أوالنواتية، وكانت مهمتهم الإبحار بالمركب أو السفينة من الناحية العملية تحت إشراف الناخذا أو الربان، وقد اشتهر أهل المغرب خاصة المغرب الأدنى بأنهم بحارة مهرة.

ثالثاً_ التجار:

جاء التجار من جميع أنحاء عالم البحر المتوسط في فترة الدراسة، كي يقوموا بالأعمال التجارية في أسواق بلاد المغرب الأدنى، وكان مما يميز التجار القادمين إلي المغرب الأدنى الغني الفاحش سواء النصارى أو المسلمون[١]. في حين غامر تجار المغرب الأدنى من جهتهم، وراحوا بعيداً بحثاً عن الفرص، ووصل بهم الحد من المغامرة اصطحاب حريمهم وباقي أسرتهم معهم في رحلاتهم التجارية[٢]. لذلك سنعرض فيما سيأتي انتماءات هؤلاء التجار الدوليين وولاءاتهم، وتداخل مهامهم التجارية.

ويمكن تصنيف التجار العاملين في تجارة المغرب الأدنى إلى ثلاثة تصنيفات، التصنيف الأول وهو تصنيف ديني عرقي، التصنيف الثاني وهو تصنيف مهني وظيفي، أما التصنيف الثالث فهو تصنيف اجتماعي[٣]، وسنعرض كل تصنيف علي حدة فيما يلي:

---

١) ابن خلدون: المقدمة، ص٢٥٧.

٢) رسالة من عبد الرحمن بن أبي الطاهر الناظر بديوان افريقية إلي حكومة بيزة، مؤرخة بـ ٥٩٦ هـ، ص٢٣ – ٢٨.

٣) ويمكن أن تشتق الكنية أو النسبة من أسماء الأماكن مثل : الأندلسي والفارسي والقرطبي، أو من القبيلة أو العائلة أو نسب آخر. وكان ذلك أمراً مألوفاً في التعريف، وخاصة في أوساط التجار والرحالة البعيدين عن بلادهم، وقد استخدمت النسبة من قبل كثيرين ناطقين بالعربية، ومهما كان دينهم، ربما كان ينفع في التعريف ببعض الجماعات. من جهة أخري يمكن للنسبة أن تكون غير جديرة بالاهتمام في تعريف الأصل الجغرافي إذ قد تدل علي أصل

أ- التصنيف الديني العرقي:

كان هناك وثاق قوي يربط كل مجموعة من التجار ألا وهو الدين والعرق، وهذا بدوره إلغاء دور التضامن الجغرافي. وكان التجار العاملون داخل مجال تجارة البحر العصور الوسطي عامة والعالم الإسلامي خاصة يفضلون تجميع أنفسهم وفق دياناتهم – مسلمون ويهود ومسيحيون. ويمكن أن نعثر علي مثال ضمن هذا الاتجاه من خلال رسالة بعث بها موسى بن ميمون إلى ابنه إبراهيم /أبراهام منبهاً إياه أن يحترس من الغرباء في أثناء ترحاله، وأن " لا يكون صديقاً حميماً لأي جماعة باستثناء أخوتنا في إسبانيا المعروفين بالأندلسيين". وكان ميمون يقصد من خلال هذا أن علي إبراهيم أن يكون صديقاً مع الأندلسيين اليهود، وليس بالضرورة مع المسلمين أندلسيين أو مسيحيين. ومن خلال مجاراة الشعور الذي عبر عنه الميموني في نصيحته الأبوية، ترينا وثائق الجنيزة أن يهود الأندلس قد تألفوا فيما بينهم إلي درجة جعلت من جوتين يذكر أن التجار الأندلسيين اليهود الذين يعملون خارج بلادهم قد شكلوا " نوعاً من النادي المغلق حيث يعرف بعضهم بعضاً" وبصورة عامة لا يمكن لغير اليهودي أو لغير الأندلسي أن يشارك فيه. ومن المحتمل أن الأندلسيين المسلمين والمسيحيين قد اشتركوا في عصبة أو جماعة مماثلة. وهكذا ومع أن الأصول الجغرافية مهمة، وسبب قوي لكي يبحث التجار والرحالة الآخرون خارج الجماعة عن مواطنيهم؛ إلا أنهم وجدوا هويتهم لدي جماعتهم الدينية[1].

١ – التجار المسلمون:

الأجداد، وليس علي مكان ولادة حاملها، انظر: أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١٠٨.

(١) A Letter from Moses b.Maimon To His Son Abraham, Published and trans by L.D. Stitskin : Letters of Maimonides , New York ١٩٧٧, p١٥٧.

أوليفيا ريمي كونستبل : مرجع سابق ، ص١٠٨.

كان التجار المسلمون لهم باع طويل داخل نطاق النشاط التجاري البحري لبلاد المغرب الأدنى، سواء المغاربة منهم أو الأندلسيون أو حتى المشارقة.

– التجار المغاربة:

عُرف التجار المغاربة بكثرة رحلاتهم التجارية البحرية في تلك الفترة[١]. فمثلاً اشتهر أهل طرابلس كتجار في التجارة البحرية، حيث كان أكثر أهل هذه المدينة تجار يسافرون براً وبحراً ولهم اسلوبهم الجيد في تجارتهم[٢]. كما اشتهر تجار مدينة المهدية في التجارة البحرية، وكانوا مميزين في هذا المجال، فنجد أنهم كانو تجار أغنياء ذو خبرة وفطنة وعلو همة في مجال التجارة وتميزوا عن غيرهم بأن معظم ملابسهم بيضاء اللون لباسهم البياض، كما اشتهروا بطريقتهم الحميدة في المعاملات[٣].

وقد ارتحل التجار المغاربة للتجارة إلي بلاد مصر والمشرق الإسلامي، فكانت مصر مقصد التجار المغاربة، ويظهر أن طائفة التجار المغاربة التي مارست الاتجار بالسلع المصرية قد نالت ثراء عريضاً بالنسبة لغيرها من التجار، ويؤخذ هذا من قول ابن خلدون إن تجار المغاربة إلي المشرق ثروتهم بعيدة لبعد الشقة وغلو أسعار بضائعهم[٤].

كما كانت بلاد المشرق مقصداً للمغاربة تجار وحجاج وطلاب علم، فمنهم من رجع ومنهم من استقر. ويُفهم من إشارة لابن جبير أن أعداداً من المغاربة كانوا يقاتلون الصليبيين في الشام إلي جنب إخوانهم المشارقة، وقد أُخذ منهم أسري، وقد كان المشارقة يقدمون فداء إخوانهم المغاربة علي المشارقة لغربتهم؛ وقد ساعد علي استقرار المغاربة هناك معاملة الأيوبيين الطيبة للغرباء وبخاصة المغاربة، فوفروا لهم

---

١) مجهول: الاستبصار، ص١١٠.

٢) المصدر السابق: ص١١٠.

٣) الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٨٢.

٤) المقدمة: ص٢٥٦، حامد عمار: مرجع سابق، ص ٦٨، ٦٩.

المدارس والبيمارستانات والقوت والحمامات، وأشرفوا علي شؤونهم بأنفسهم، ولا يحتجن احد بإشارة ابن جبير للضيق والعنت الذي يلقاه المسافر عند الإسكندرية. فقد أشار في مواضع عدة إلى أن ذلك لم يتم بمعرفة الحاكمين، وقد أكثر من تمجيد صلاح الدين[١].

كما كان التجار المغاربة يدخلون صقلية وإسبانيا خاصة اشبيلية، كما كان يدخل تجار هاتين المنطقتين إلي المغرب في أوقات الهدنة والصلح. ومما شجع علي هذه التجارة وجود أقليات مسلمة في صقلية وإسبانيا كان الحكام المسيحيون يشجعونها علي البقاء لضرورات منها الضرورات الاقتصادية؛ والراجح أن مصالح هذه الأقليات استوجبت بقاءها، وربما كانت تقوم بدور الوسيط في التجارة بين داري الحرب والإسلام. وكان التجار المغاربة في هذه الفترة يصلون إلى إيطاليا وجنوب فرنسا مثل مدينة مونبيليه ويدخلون إلي المشرق، كما كان التجار المشارقة يدخلون إلى المغرب[٢]. وتتحدث وثائق التجارة الأوربية عن دقة تجار المغرب في معاملاتهم واهتمامهم بالوفاء بالتزاماتهم المالية والتجارية[٣].

ومن أسماء التجار المغاربة الذين ذكروا في المصادر التاريخية كتجار دوليين، يذكر ابن بشكوال أن مغربياً قدم من القيروان معروف عنه خبرته في التجارة في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ويسمي محمد بن القاسم القروي الذي جاء إلي الأندلس في حوالي٤٠٥هـ/١٠١٥م[٤]، كما ذكر ابن فرحون وجود

---

١) ابن جبير: مصدر سابق، ص٢٨٠، ٢٨١، عز الدين عمر موسي: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص٤١،٤٢.

٢) بنيامين التطيلي: مصدر سابق، ص١٨١، ١٨٦، عز الدين موسي: النشاط الاقتصادي، ص٢٨٨، ٢٨٩.

٣) عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، ص٢٣٠.

٤) كتاب الصلة: ص٥٦٤، ٥٦٥.

تاجر مغربي أخر اسمه محمد أبو عبد الله بن سعدون بن علي من القيروان وكان فقيهاً، إلا أنه اشتغل بالتجارة فطاف بلاد المغرب والأندلس[١].

كما ذكرت لنا المراسلات التي تمت بين تجار مغاربة ونظرائهم الايطاليين بعض أسماء التجار المغاربة الذين برزوا في مجال التجارة البحرية لبلاد المغرب الأدنى، ومنهم التاجر محرز القابسي[٢] والتاجر هلال بن خليفة الجمونسي[٣] والتاجر مناد بن عبد الله[٤] والتاجر إبراهيم بن خليفة الجلاد[٥] والتاجر الحاج صدقة الجلاد[٦] والأخوان التاجران عيسي وعبد الله الجلادين[٧]. وبذلك تكون عائلة الجلاد هي عائلة تجارية من المقام الأول وكانت تقيم بتونس.

ومن التجار المغاربة الذين وصلوا بتجارتهم إلي الهند والصين، نذكر تاجر مغربي لم يذكر أبو حامد الغرناطي اسمه ولكنه ذكر أنه سافر إلى الصين وأقام بها مدة، ثم عاد إلي بلده بالمغرب بأموال عظيمة، وكان يُعرف بعبد الرحيم الصيني[٨].

---

١) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: تحقيق مأمون بن محيى الدين الجنَّان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى١٩٩٦م، ص٣٦٩ .

٢) رسالة من التاجر محرز القابسي إلى التاجر الكبير باج البيزي، ص ٤٨، ٤٩.

٣) رسالة من التاجر المغربي هلال بن خليفة الجمونسي إلى التاجر البيزي الكبير باج، ص٥٠ – ٥٢.

٤) رسالة من التاجر المغربي مناد بن عبد الله إلي التاجر البيزي الكبير باج، ص٥٥، ٥٦.

٥) رسالة من التاجر إبراهيم بن خليفة الجلاد بتونس إلي التاجران البيزيان باج وفرسطان، ص٥٧، ٥٨.

٦) رسالة من التاجر الحاج صدقة الجلاد بتونس إلي التجار البيزيون سرفرسطان وسرففيان وسربلناط كرك وسرالبان، ص٦٠، ٦٢.

٧) رسالة من التاجران عيسي وعبد الله الجلادين بتونس إلي التاجر البيزاني بان فين ، ص٦٣، ٦٤.

٨) محمد عبد الغني الأشقر: تجارة التوابل في مصر في العصر المملوكي، ص٢٧.

obeikan.com

إلا أن تزايد أعداد الأجانب في التجارة المغربية– كما سنري في الصفحات القادمة– خاصة في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، قد ترك تأثيراً كبيراً علي أوضاع التجار المغاربة. وبسبب نفوذ تجار المدن الإيطالية في تجارة المتوسط تأثر وضع أرباب الأموال الكبيرة والسفار من التجار المغاربة؛ وخير ما يوضح هذا التأثير أن عدداً منهم ترك التجارة وتزهد وتصوف. ومن هنا يجوز القول بأن الفترة الموحدية التي شهدت تطويراً للزراعة والصناعة وعناية بالتجارة الداخلية، واجه فيها المغاربة العاملون في التجارة الخارجية صعوبات لم تزدها إجراءات الموحدين إلا اشتداداً[١].

– التجار الأندلسيون:

برع الأندلسيون في التجارة خاصة التجارة الخارجية، إذ أن خبرتهم بالبلاد المسيحية كانت تؤهلهم لأن يلعبوا الدور الحاسم فيها، وقد أوردنا– سابقاً– نصاً لعبد الباسط بن خليل يشير فيه إلى الثروة الطائلة التي حصل عليها الحاج أبو القاسم البنيولي وإلى وصوله إلي رتبة كرتبة كبير التجار، مما يدل علي أن ميدان التجارة هيمن عليه الأندلسيون، وخاصة وأن هؤلاء كانوا "منظمين" في إطار (جماعات)، ففي إشارة للغبريني يوضح فيها أن أبا بكر محمد بن محرز (ت٦٥٥ /١٢٥٧): "كان علي رأس الجماعة الأندلسية ببجاية "، ولاشك أن نجاحها يرجع إلى تنظيماتها[٢].

وكانت المدن المغربية مقصد التجار الأندلسيون، فكانت طبرقة هي عدوة اهل الأندلس ومنها يركبون إلى الأندلس، لذلك اشتهرت طبرقة بورود المركب إليها[٣].

---

١) ابن عبد الملك المراكشي: مصدر سابق، جـ١، ص٣١٣، ابن الزيات : مصدر سابق، ص٨٩، ٣٣٢، ٣٤٦، ٤٤٩، عز الدين عمر موسي: النشاط الاقتصادي، ص٢٩٢.

٢) الغبريني: مصدر سابق، ص٢٨٧، محمد رزوق: مرجع سابق، ص٤٦ – ٤٨.

٣) الإدريسي: مصدر سابق، ص٢٨٩، نريمان عبد الكريم أحمد: مرجع سابق، ص٢١٩، ٢٢٠.

وقد كتب الجغرافي البكري ذاكراً ظهور تجار أندلسيون في المهدية عام٤٥١هـ/١٠٦٠م، وذكر أن أكثر تجار مدينة بونة أندلسيون[١].

ومن هؤلاء التجار الأندلسيون الذين أتوا إلى بلاد المغرب الأدنى، التاجر نزار بن محمد بن عبد الله القيسي (ت٤٢٤ هـ/١٠٣٢م) وهو من أهل أشبيلية "جال في بلاد أفريقية والأندلس زماناً طالباً للعلم وتاجراً"، التاجر محمد بن إبراهيم بن وهب (ت٤٥٣ هـ/١٠٦٣م) وهو من طليطلة كان متحرفاً للتجارة[٢].

وقد تعدى دور التجار الأندلسيون مرحلة التجارة في موانئ المغرب الأدنى نفسه، بل وحمل بضائع المغرب الأدنى لبيعها في مناطق بعيدة جداً، كما يدل علي ذلك بعض المقاطع من وثائق الجنيزة من عيذاب عام٤٩٣هـ/١١٠٠م التي أشارت إلي وصول أحد التجار الأندلسيين (وهو غالباً تاجر من أصل قرطبي يحمل بضائع تجارية من المهدية)[٣].

- التجار المشارقة:

لقد عرفت بلاد المغرب الأدنى قدوم التجار المشارقة المسلمون، والذي استمر قدومهم حتي زمن الحسن الوزان إذ يقول: "تُعطي جربة عشرين ألف "دوبل " من مداخيل الإتاوات والمكس نظراً للتجارة الكبيرة بها، إذ يختلف إليها كثيراً التجار الإسكندريون والأتراك"[٤].

---

١) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب: ص٣٠،٣١، ٥٥، أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١٤٠، ١٤١.

٢) ابن بشكوال: مصدر سابق، جـ٢، ص٧٨٩، ٩٢٣، بان علي محمد البياتي: مرجع سابق، ص١٠٦

٣) أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١٥٦.

٤)الحسن الوزان: مصدر سابق، جـ٢، ص٩٥.

obeikan.com

وكان التجار المصريون خاصة السكندريين معتادون على الذهاب للتجارة في بلاد المغرب، وأحضروا معهم رؤوس المال الكبيرة للتجارة في تلك المناطق. ونتيجة لقرب بلاد المغرب الأدنى من مصر كان التجار المصريين في بعض الأحيان يذهبون ببضاعتهم إلي بلاد المغرب الأدنى، فإذا لم تسمح الظروف ببيعها يعودون بها مره ثانية إلي مصر لبيعها هناك(١).

٢ – التجار غير المسلمون:

كان من المألوف في عالم المتوسط في العصر الإسلامي وجود اليهود والمسيحيين وهم يتاجرون بحرية مع جميع الأقاليم، بينما كان التجار المسلمون يقتصرون في نشاطهم عموماً على دار الإسلام(٢).

- التجار اليهود:

ارتبط تواجد اليهود بالمدن والحواضر ذات الأهمية التجارية التي تمر بها القوافل والرحلات البحرية إلى المشرق وأوروبا وغيرها، وذلك لأنهم غالباً ما كانوا تجاراً وعملوا كوسطاء بين التجار(٣). ويرجع البعض بروز التجار اليهود كوسطاء تجاريين وسماسرة في تلك الفترة، كان نتيجة العداوة السائدة بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي(٤). كما هيأ الحكم الإسلامي أجواءَ مناسبة لنمو تجارة اليهود خاصة مع

---

١) ابن عذاري: البيان، قسم الموحدين، ص٨٢، الونشريسي: مصدر سابق، جـ٩، ص٩٣.
٢) سلمي الخضراء الجيوسي: مرجع سابق، ص١٠٨٠، ١٠٨١.
٣)الزجالي:أمثال العوام في الأندلس، مستخرجة من كتابة (ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام)، تحقيق محمد بن شريفة، مطبعة محمد الخامس ، فاس١٩٧١م، ص١١،١٨٢، شرقي نوارة: مرجع سابق، ص٦٨
٤) Marcus Arkin : Aspects of Jewish Economic History, Varda Books, Skokie, illinois, USA ٢٠٠٢,pp ٤٣-٤٦

سياسة التسامح التي انتهجها الحكام المسلمون تجاه هؤلاء اليهود[١]، حيث سيطر رجال أعمالهم علي تجارة شمال أفريقيا ومنطقة البحر المتوسط الإسلامية عامه وبعد الغزو الفاطمي لمصر(٣٥٨هـ/٩٦٩م) قاموا بالدور الأساسي في التجارة مع الهند أيضا وكانوا حلقة وصل بين الهند وبلاد البحر المتوسط[٢].

وتجدر الإشارة إلى أن كثيراً من التجار الأندلسيين اليهود الذين كانوا يهتمون أولاً بنقل الحرير والكتان بين مصر ومراكز البحر المتوسط، كانوا يعيشون في باليرمو والمهدية في النصف الأول من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي[٣].

كثير من التجار اليهود كانوا مغاربة الأصل، فتكثر الإشارات في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي إلى عمل اليهود المغاربة في التجارة[٤]، فاليهود المغاربة خاصة يهود فاس اشتهروا بالتجارة والترحال، كما كانت اجدابية يغلب على أهلها كثرة التجار اليهود المقيمين بها[٥].

وقد مهد انتشار الجاليات اليهودية في أوروبا والمشرق السبيل إلى عمل اليهود المغاربة في التجارة الخارجية، لاسيما التجارة مع إسبانيا ومصر وعن طريق مصر إلي

---

١) سعيد عبد الفتاح عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربية، بيروت ١٩٧٧م، ٩٤، ٩٥، أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١٤٦.

٢) سلام شافعي محمود : مرجع سابق، ص١٥٤ ، ١٥٥، محاسن محمد الوقاد: مرجع سابق، ص٦٠،

Stillman , Norman a : Op,Cit, p٤٤

٣) أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص٧٧، ٧٨.

٤) عز الدين موسي: النشاط الاقتصادي، ص١٠٩، ١١٠، ٢٨٩، ٢٩٠.

٥) مجهول: الاستبصار، ص٢٠٢، القزويني: مصدر سابق، ص١٠٢-١٠٣، الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٣١٠، ٣١١، إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت١٩٩٧م، ص٩٧، بان علي محمد البياتي: مرجع سابق، ص١٠٥،

obeikan.com

الجزيرة العربية والهند، خاصة أن العلاقات العائلية قد ربطت بين تجار اليهود المشارقة والمغاربة[١].

ولعل الترحال من أجل التجارة كان سبب رئيسي في هجرة الكثير من التجار اليهود المغاربة وأسرهم حيث حدث خروج كبير قام به طبقة التجار، وفيها انتقلت عائلات بأكملها من تونس إلي صقلية والي مصر وحتى إلي بلاد ابعد. ولقد كانت هذه الحركة السكانية الكبرى هي السبب إلي حد كبير في وجود ذكر لعدد كبير من التونسيين في جنيزة القاهرة، كما كانت قاعدة بعضهم الأساسية في القيروان وفي شقيقتها المهدية . ولم يستقروا فقط في الفسطاط والإسكندرية أو مراكز الكتان الشهيرة في مدينتي بوصير وتنيس، ولكن في أماكن أصغر حيث يوجد الكتان والنيلة قوام المحاصيل المصدرة، ولقد جاء هؤلاء التونسيون لقضاء أعمال تجارية في مصر أو للاستقرار فيها منذ عهد قريب جداً، وظلت أسراتهم الأصلية باقية لبعض الوقت في تونس. وكانت غالبية يهود القدس في ذلك القرن (الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي) مغاربة، ولقد تم هذا الحصر من وثائق الجنيزة التي نُشرت حديثاً[٢].

ومع التجارة كانت هناك عدة ظروف عانى منها التجار اليهود المغاربة دفعتهم إلي مصر ومدن البحر الأحمر الساحلية وشبه الجزيرة العربية والهند. ومنها أن التجارة في افريقية تضررت كثيراً في أواسط القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي نتيجة الغزوة الهلالية وما بعدها ومن ضمنها تجارة اليهود؛ كما يدعي البعض أن هجرة عدد كبير من اليهود إلي المشرق تم فراراً من اضطهاد الموحدين الذين دفعوا أيضاً بصغار اليهود إلى الأسر المسلمة، لكنهم لم يقدموا أدلة نصية أو إحالة مرجعية تثبت قولهم، بينما يؤكد بعض المؤرخين أن هذه الهجره اليهودية المكثفة إلي المشرق كان سببها بالأساس هو تساهل الفاطميين ثم الأيوبيين بمصر مع

١) عز الدين موسي: النشاط الاقتصادي، ص١٠٩، ١١٠، ٢٨٩، ٢٩٠.
٢) جواتين: مرجع سابق، ص٢٢٨، ٢٢٩.

obeikan.com

أهل الذمة، وتطور البحرية المسيحية التي احتلت مكان الوسيط التجاري بين الشرق والغرب بدلاً عن الساحل التونسي. كما أصبحت فرص اليهود بالمشرق أكثر منها بالمغرب منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، لذلك حمل العديد من اليهود أمتعتهم وتوجهوا صوب بلدانها. ولم تتوقف هذه الهجرة بل استمرت خلال القرن اللاحق بسبب توالي الاضطرابات في كثير من المناطق التي كانت تجارة اليهود تتنفس فيها(١).

إلا أنه من جانب أخر لا يمكن إنكار أن التجار اليهود وأسرهم المقيمين بالمغرب الأدنى كانوا عرضه للأذى وقت الحروب، فمثلاً بعد استيلاء صاحب صقلية على جزيرة جربة، حلّ بمسلمي جربة وكذلك بجاليتها اليهودية أذي كبير، كما تدل على ذلك وثائق "جنيزة القاهرة "ففي رسالة من تاجر يهودي يكتب من عدن إلي أهله في المهدية، بتاريخ ٦جمادى الأول٥٤٤هـ/١١سبتمبر١١٤٩م، عن غارات النورمان وما أحدثته من خسائر في الأرواح والأموال، وانتقال أقاربه إلى صقلية، فيقول: " سمعت عماً حلَّ بساحل إفريقية وطرابلس وجربة وقرقنة وصفاقس والمهدية وسوسة، إلا أنه لم يصلني أي خطاب يمكنني من معرفة من مات ومن بقي علي قيد الحياة، أناشدكم الله أن تكتب تفاصيل دقيقة، وأن تبعث برسائلك مع أُناس يُعتمد عليهم، كي يطمئن بالي"(٢).

وتشير الشواهد الوثائقية لوثائق الجنيزة أن أشهر تجار مصر وأنشطهم كانوا مغاربة، وهناك أكثر من أربعمائة خطاب ووثيقة خاصة بالتجار المغاربة تحمل أسماء الفاسي والتاهرتي والطرابلسي، طاب لكثير منهم الاستقرار في مصر، ولم يستقروا فقط في الفسطاط والإسكندرية، أو في مدينتي بوصير وتنيس، ولكن في قرى كثيرة

---

١) محمد المغراوي: مرجع سابق، ص١٣٣، ١٣٤.

٢) A Letter from Abraham Ben Yiju to his Brothers and Sisters after His Safe Return from India, pp٦٨١-٦٨٧.

في الريف المصري، كما احتفظت بعض نواحي الدلتا بأسماء من نزل بها من هؤلاء التجار(١).

ولقد كانت مدن البحر الأحمر الساحلية وشبه الجزيرة العربية والهند تفيض بأناس جاءوا إليها ليس فقط من مدن كبري في بلاد المغرب الإسلامي مثل برقة وطرابلس بليبيا والقيروان والمهدية بتونس، وتلمسان بالجزائر، وفاس وطنجة بالمغرب الأقصى، ومالقة وجزيرة ميدوم بأسبانيا، ولكن جاءوا أيضاً من مدن صغيرة ليست ذات بال مثل (جبل) نفوسة بليبيا وأربوس بتونس ودرعة بالمغرب. وتثبت وثائق الجنيزة في بعض القضايا أن عدداً من هؤلاء الأشخاص أو أبائهم، قد هاجر من هذه البلاد إلي مصر. علي أن في بعضها الآخر، نري التجار القادمين من تونس والمغرب وإسبانيا وصقلية يتكبدون مشاق الرحلة الطويلة إلي الهند، وفي بعض الأحيان يقطعونها أكثر من مرة. ورغم هجرتهم فقد ظلوا علي اتصال بالمغرب في تجارتهم بعيدة المدى، فوثائق الجنيزة تشير إلي وصول العديد من التجار اليهود من المهدية وسجلماسه والأندلس إلي ساحل ملبار بالهند وعودتهم بسلع منها خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي(٢).

ومن أولئك التجار المغاربة الذين عاشوا في مصر كقاعدة فئة نشيطة علي حد سواء في المحيط الهندي والبحر المتوسط. هكذا كان هالفون بن نيثانيل إلى القاهرة في عام٥٢٨هـ/ ١١٣٤م من الهند إلى عدن بعد إقامة طويلة هناك، وفي

---

١) حسن خضيري أحمد: مرجع سابق، ص٢٤٨.

Goitien.S.D : med, vol , p٢٠

٢) A Letter from Abraham Ben Yiju to his Brothers and Sisters after His Safe Return from India, pp٦٨١-٦٨٧, جواتين: مرجع سابق، ص٢٧٠، محمد المغراوي: مرجع سابق، ص١٣٣، ١٣٤.

Obeikan.com

عام٥٢٩هـ/١١٣٥م كان هو في القاهرة وأثناء نفس السنة نجده في اسبانيا والمغرب[١].

ومن التجار المغاربة الذين برزوا أيضاً في مجال التجارة الدولية بعد هجرتهم من بلاد المغرب الأدنى بسبب الاضطرابات التي حدث هناك، تاجر يسمي (إبراهيم بين ييجو) من المهدية بتونس، أقام في الهند خلال عام٥٢٦هـ/١١٣٢م وعام٥٤٣هـ/١١٤٩م، وتشكل الخطابات المعنونة إليه والخطابات التي أرسلها خلال هذه الفترة أهم أجزاء وثائق تجارة الهند المحفوظة. وكان ابن ييجو يمتلك أيضاً مصنعاً للنحاس الأصفر في الهند، يتردد ذكره كثيراً في الوثائق. وبعد عودته من عدن، قضي ابن ييجو عدة سنين في اليمن. علي أنه بعد أن مات ابنه الوحيد هناك، عاد إلي الفسطاط ليزوج ابنته الوحيدة لواحد من أبناء العائلة، هاجر من تونس إلى صقلية خلال سني غيابه، ولقد قبل ثلاثة من أبناء تاجر الهند العجوز دعوته وسافروا من بلدة مزاره بصقلية إلي الفسطاط، ويُحفظ الآن عقد زواج هذه الوريثة الغنية من أكبر أبناء عمها في مكتبة لننجراد العامة[٢].

---

١) Memorandum from Madmun b. Hasan to Halfon ha-Levi b. Nethanel, Aden {ca. ١١٣٥}, II, ٣٣. TS ٨ J ٣٧, f. ١, II, ٣٤. TS Arabic ٥, f. ٢ , Published by Mordechai Akiva Friedman,S.D.Goitein : India Traders of the Middle Ages , the Ben – Zvi Institute Jerusalem , Brill , Leiden , Boston ٢٠٠٨, pp٢٨٠-٢٨٥, Letter from Joseph b. Abraham to Halfon ha-Levi b. Nethanel , Aden, ca. ١١٣٤, TS NS J ٤٠٢ , Published by Mordechai Akiva Friedman, Goitein.S.D : India Traders of the Middle Ages (Documents from the cairo Geniza) , the Ben – Zvi Institute Jerusalem, Brill, Goitein.S.D: From the Mediterranean to India , Leiden, Boston٢٠٠٨, pp٤٠٧-٤٠٨, p١٨٥- ١٨٧.

٢) Abraham Ben Yiju's Inventory of Baggage for Journey from India to the West India ={probably ١١٤٠ or ١١٤٩},TS NS ٣٢٤, f. ١١٤, Published by Mordechai Akiva Friedman,S.D.Goitein : India Traders of the Middle Ages (Documents from the cairo Geniza) ,= the Ben – Zvi Institute Jerusalem , Brill , Leiden , Boston ٢٠٠٨, pp٦٦٢-٦٦٤. Letter from Abraham Ben Yiju on the Way to Egypt: Distrust between Associates and Disruption of Family Life, Aydhab, probably١١٥٢ , TS ٨ J ٢١, f. ١٠ , Published by Mordechai Akiva Friedman,S.D.Goitein : India Traders of the Middle Ages (Documents from the cairo Geniza) , the Ben – Zvi Institute Jerusalem , Brill ,

Obeikan.com

وبرز من التجار المغاربة في مجال التجارة الدولية بعد هجرتهم من بلاد المغرب الأدنى، (يوسف أو جوزيف الليبيدي)، وهو من اسم عائلته أصله من مدينة لبدة أي لبدة الكبرى في طرابلس الغرب[١]. كذلك من هؤلاء التجار تاجر يسمي (عروس بن يوسف)، وكان من المهدية بتونس، وهو صاحب مصبغة بالفسطاط، وكان له نشاطه في البحر المتوسط وفي تجارة الهند، ولكن شهرته كانت أكثر في البحر المتوسط، عاش في الربع الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي[٢].

كما تذكر الوثائق المتعلقة بتجارة المدن الايطالية بالمغرب الأدنى تجار يهود كانوا ينشطون في التجارة البحرية بين المغرب الأدنى والمدن الايطالية، ومن هؤلاء التجار (ابيذين) اليهودي وصهره بيتوره المتنصر[٣].

وحتى نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ظل التجار اليهود في تجارة البحر المتوسط، ومع بداية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ومع بروز التجار الايطاليون أُرغم التجار اليهود على البعد عن بيع الجملة، وانخرطوا في التجارة الشخصية والبيع بالتجزئة، كما اتجهوا لإعارة الأموال

Leiden , Boston ٢٠٠٨ , pp٧١٩ – ٧٢١ . Letter from Abraham Ben Yiju to his Brothers and Sisters after His Safe Return from India, pp٦٨١-٦٨٧. Letter from Perahya b. Joseph to Abraham b. Elijah, al-Mahdiyya, Inquiring about Perahya's Uncle Abraham Ben Yiju , pp٦٩٤,

جواتين: المرجع السابق، ص٢٦٠.

١) A Letter from Joseph Lebdi to Hasan b. Bundar Fustat, ١٠٩٨ , pp١٩٨-٢٠٢. Goitein.S.D : From the Mediterranean to India : Documents on the Trade , p١٩١

٢) رسالة من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عيذاب إلي أولاده في مصر، ص ٤٥٦، جواتين: المرجع السابق؛ ص٢٦١ .

٣) رسالة من تونس إلى حاكم بيزه لإنصاف أحد التجار، الرسالة مؤرخة بـ ٢٠ شوال ٦٢٤، نشر Michel Amari : A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino ١٨٦٣، تحت رقم ٢٨، ص٨٣- ٨٥.

obeikan.com

وإقراض غيرهم من التجار مقابل الفوائد المالية خاصة مع بروز الحملات الصليبية علي السطح، وحتي في هذا المجال وجدوا منافسة عنيفة من المراهنيين والمرابين المسيحيين مثل (مدعون لومبارد)، لذلك اقتصر عملهم في تجارة الهند البعيدة[١].

- التجار النصارى:

بانتهاء القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بدأت الوحدة السياسية للمسلمين تتفتت، وبهذا بدأت الكيانات السياسية المغربية المطلة علي البحر المتوسط يقل خطرها علي جنوب أوربا، لذلك بدأ التوتر المسلح بين الجانبين في الانحسار ، مما أتاح الفرصة للاتصالات الاقتصادية بين الطرفين، حيث بدأ التجار المسيحيون في الاتجاه لتأسيس العلاقات التجارية المباشرة مع تونس ومصر والمشرق[٢].

ويمكن القول انه من جميع النواحي كان الايطاليون هم ملاحي البحار ومكتشفيها العظام في العصر الوسيط. قد يبدو هذا القول مبالغاً فيه، لكن الواقع هو أن أثارهم المنتظمة قد وضعت الأساس للاكتشافات البحرية، فضلا عن أن دورهم كما هو معروف في هذه الاكتشافات كان عظيم الشأن، سواء أكان ذلك بصورة مباشرة أم غير مباشرة، فقد أسس الايطاليون خطوطاً منتظمة لحركة السفن كانت بدايتها من جبل طارق وحتى الفلاندرز وجنوب انجلترا، حيث التقوا هناك مع شبكة الهانزا ووصلوا بذلك إلى مناطق البلطيق وما بعدها، كذلك ذهبوا نحو الجنوب والشرق. ونحن نعرف تحديدا أن لهم محاولة في الالتفاف حول إفريقيا من

---

١) جوزيف شاخت، كليفورد بوروورث: مرجع سابق، جـ١، ص٣٠٦،

Marcus Arkin : op,cit , pp ٤٦ , ٥٢ , ٥٣ , ٧٥

٢) Marcus Arkin : op,cit,pp ٤٤ – ٤٦ , ٥٢ , ٥٣ .

obeikan.com

الغرب ، وهي تلك التي قام بها اخوان فيفالدي من فينيسيا في عام٦٨٩هـ/١٢٩١م[١].

ومنذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، يمكن ملاحظة سيطرت الجنويون والبيزاويون ومسيحيون آخرون على التجارة وطرقها ونزعها من مجموعات تجارية أخري[٢]، وقد ظل رعايا الجمهوريات الايطالية يسيطرون في موانئ المغرب الأدنى علي جزء هام من التجارة الخارجية حتى عصر الدولة الحفصية[٣].

وتشهد الوثائق بأن تجارة المرسيليين في اوائل القرن الثالث عشر كانت نشيطة للغاية في إفريقية؛ في حين كان البيزيون يسيطرون علي سوق تونس، نظراً لأقدميتهم في ذلك المركز التجاري، وتحت رعاية جنوة وبيزة، كان سكان فلورنسا ولوك يتعاطون التجارة في نفس تلك المراكز. وقد قامت إمارة البندقية في شهر مايو عام ١٢٢٥م بتحديد أيام الإيجار لمراكبها المتوجهة إلى تونس وعنابة وسبتة[٤].

واشتهر التجار الجنويين بالنشاط المحموم في التجارة الجنوية مع بلاد االمغرب الادني، خاصة في شهور السنة التي تتميز بالاعتدال، حتى أن الجنوي كان يعمل ستة أيام كاملة في الأسبوع دون كلل حتى مغيب الشمس، ولكن هذا النشاط قد تفاوت من وقت لآخر من العام حسب استقرار الطقس[٥]. كما أن الأمن الذي فرضه

---

١) رايس: مرجع سابق، ص١٦٩.

٢) أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١٦٠، ١٦١.

٣) روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٤٥٢ – ٤٥٤.

٤) رسالة من من عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحقّ بن أبي خرسان إلى حكومة بيزه، ص١ – ٦، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ١، ص٥٤، ٥٥، ممدوح حسين علي حسين: مرجع سابق، ص٦٥٥ – ٦٥٧.

٥) Steven A , Epstein; Op,cit , p٢٦٠ .

Obeikan.com

الموحدون والامتيازات التي أعطوها إلى الجنويين والتقلص المؤقت لتجارة جنوة مع المشرق في عام٥٥٧هـ/١١٦٣م بسبب الحرب مع بيزة، كلها عوامل جعلت جنوة تتجه نحو التجارة المغربية، فدخل فيها كبار المستثمرين من أهل جنوة [١].

وكان من أبرز التجار النصارى الذين عملوا في تجارة المغرب الأدنى البحرية، هو التاجر البيزي الكبير (باج)، والذي يرجح من خلال الرسائل التي كانت ترسل له من مسئولين وتجار مغاربة، أنه كان كبير التجار البيزيين من حيث العمر والمكانة الاجتماعية بل ومن حيث الغني وتجارته الضخمة، حتى أنه كان يبرز دائماً في فض المنازعات والمشاكل التجارية التي تنشأ بين تجار بلاده وتجار المغرب الأدنى، كما أن مسئولي المغرب الأدنى وتجاره كانوا دائماً يطلبوا وساطته في فض تلك المشاكل، وأبرزها قضية المسطحات، والذي طُلب منه من قبل المسئولين والتجار المغاربة أكثر من مرة إرجاع حقوق المغاربة الذين تأذوا في تلك الحادثة[٢].

كما أن هذا التاجر وصل لمكانة عالية عند نظرائه من تجار المغرب الأدنى، حتى أنه كان يضمن غيره من تجار بلاده عند تجار المغرب الأدنى، خاصة فيما يختص بتسديد أسعار السلع بعد عودة هؤلاء التجار لبلدهم بيزة، ويذكر لنا تاجر مغربي يدعي محرز القابسي مكانة التاجر باج عند تجار ومسئولي بلاد المغرب الأدنى فيقول: "وأنت يا صديقي– الكلام موجه للتاجر باج من قبل محرز القابسي– ذكرك ذكرُ خير عندنا وأنت مشكور الأحوال عند التجار وعند من سافر معك فلا تكن إلا عند ما يُظنّ بك من الخير ولولا جاهك عليه ما تركناه ساعة واحدة "[٣]. ويبدو أن التاجر باج هو نفسه المُسمي (باش) أو (بانش) في بعض الرسائل لما يحمل الاسمين

---

١) عز الدين عمر موسي: النشاط الاقتصادي، ص٢٩١.

٢) رسالة من يوسف بن محمد صاحب ديوان تونس والمهدية إلي أحد كبار تجار بيزة، ص٣١، ٣٢.

٣) رسالة من التاجر محرز القابسي الي التاجر الكبير باج البيزي، ص ٤٨، ٤٩.

لصفات ومكانه اجتماعيه لشخص واحد، وقد ذكرت احدي الرسائل اسمه بالكامل (باش بن كرص)[١]. ومن ألقابه المعروفة آنذاك (الشيخ) و(الريس)[٢].

وقد ذكرت تلك الوثائق أيضاً أسماء لتجار ايطاليين آخرين لاسيما البيزيين، مثل التاجر سعيز والتاجر فرسطان والتاجر اكريبسان[٣]، كما ذكرت التاجر الشيخ فرسطان أو فرستان[٤]. كذلك ذكرت وثيقة أخري التجار سرفرسطان وسرففيان وسربلناط كرك وسرالبان[٥]، والتاجر بان فين وكل هؤلاء التاجر كانوا من بيزة[٦].

ومن التجار النصاري أيضاً تاجر يسمي (جوهانس ماليفياستر) الذي يظن أنه من أصول إغريقية، واستقر في جنوي منذ منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. ونعلم أنه كان له أربعة استثمارات بين عامي٥٥٠هـ/١١٥٦م و٥٥٤هـ/١١٦٠م، وقد غامر في عام٥٥٠هـ/١١٥٦م بعشرين ليرة ثمن رحلة إلي الماريا، في حين أجري عقداً في عام٥٥٣هـ/١١٥٩م ظهر فيه أنه أرسل ١٥٠ ليرة إلي إسبانيا، وأرسل٤٠ ليرة إضافية إلي المكان نفسه في السنوات التالية. وكان بونوس جوهانس خلال هذه المرحلة ناشطاً في حلبات أخري من حلبات تجارة البحر المتوسط، ومستثمراً ومغامراً في صقلية والإسكندرية وسورية وشمال أفريقيا[٧].

---

١) رسالة من الترجمان المغربي عثمان الترجمان إلي التاجر البيزي بانش بن كرص، ص٥٠ – ٥٢.

٢) رسالة من التاجر المغربي مناد بن عبد الله إلي التاجر البيزي الكبير باج، ص٥٥، ٥٦.

٣) رسالة من الترجمان المغربي عثمان الترجمان إلي التاجر البيزي بانش بن كرص، ص٥٠ – ٥٢.

٤) رسالة من التاجر إبراهيم بن خليفة الجلاد بتونس إلي التاجران البيزيان باج وفرسطان، ص٥٧، ٥٨.

٥) رسالة من التاجر الحاج صدقة الجلاد بتونس إلي التجار البيزيون سرفرسطان وسرففيان وسربلناط كرك وسرالبان، ص٦٠، ٦٢.

٦) رسالة من التاجران عيسي وعبد الله الجلادين بتونس إلي التاجر البيزاني بان فين، ص٦٣، ٦٤.

٧) أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١٦٣، ١٦٤.

Obeikan.com

وعلي الرغم من أن التشريع الإسلامي لم يشجع المسلمين علي النقل التجاري في البلاد النصرانية، فقد كان سيف التحريم المسلط على رقاب التجار الراغبين في غزو الأسواق الأوروبية، إلا أن هذا التشريع لعب دوراً كبيراً في هذا المجال. فكيف يستطيع تاجر ما أن يغامر بالتوجه بحرا إلى أحد أسواق أوروبا وهو يعلم أن ذلك سينتج عنه "سقوط إمامته وشهادته"[١]، إلا انه في المقابل وضع قليلاً من الحواجز في طريق التجار المسيحيين القادمين. لقد كان الرحالة الأجانب من غير المسلمين مطلوبين في دار الإسلام للحصول على شهادة الوصول الآمن (أمان)، والتقيد بالنشاطات المقررة لجميع التجار المحليين. لقد كانت شهادة الأمان صالحة، بصورة عامة لمدة أربعة أشهر إلى سنة، وتسمح لغير المسلم أن يعيش ويعمل في الأراضي الإسلامية خلال هذه المدة دون أن يتحمل وضع مقيم غير مسلم أي ذمي، حتى مع الوثائق اللازمة، وبعد أن استقامت التجارة المسيحية في القرنين الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي والسابع الهجري /الثالث عشر الميلادي، ظل النصارى محدودين عملياً في اتصالهم مع بعض موانئ المدن حيث يقيمون بيتاً تجارياً (فندق) مع جالية صغيرة من بلدهم. من جهة أخرى كان نادراً أن يدخل التجار الأوربيون إلى شبكات التجارة الدولية في البلاد الإسلامية، وباستثناءات قليلة أمكن للتجار الأجانب أن يمروا مع أي نوع من البضائع، وإذا ما واجه التجار النصارى قيوداً على مرورهم إلي البلاد الإسلامية، فهي تعني أنها مفروضة من قبل حكامهم وسلطاتهم الدينية أكثر من أن تكون من قبل مستضيفيهم المسلمين[٢].

---

١) ابن رشد: مصدر سابق، جـ٢، ص١٥٣، ١٥٤.

٢) رسالة عن السيد أبى زيد عبد الرحمن بن أبي حفص بن عبد المؤمن والى تونس إلى تجار بيزة، ص٢٩،٣٠، رسالة من يوسف بن محمد صاحب ديوان تونس والمهدية إلي أحد كبار تجار بيزة، ص ٣١، ٣٢، رسالة من السيد أبي زيد عبد الرحمن إلى حكومة بيشة، ص٣٣، ٣٤، أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١١٧.

وكان معاملة التجار الأجانب سواء مسلمين أم غير مسلمين يرجع إلى مستوى العلاقة بين حكام بلاد المغرب الأدنى وحكام البلاد التابع لها هؤلاء التجار والتي كانت تنعكس في شكل اتفاقيات بين الطرفين. فلقد كان التجار ومواطنو الدولة التي بينها وبين الحاكم المغربي اتفاقية يتمتعون بالحماية، وكذا أولئك الذين خول لهم الحاكم امتيازات وتشمل هذه الضمانات الإقامة في المدن والأسفار عبر البحار. ولقد كانت بعض الاتفاقيات تؤكد هذه الوضعية حيث كانت بعض السفن الإسلامية تخول لمواطني القوة الحليفة التسهيلات الكاملة سواء أبحروا علي سفنهم أو علي سفن دولة أخري. لقد كانوا بذلك تحت الرعاية الكاملة للحاكم، هذه الرعاية التي يعُبر عنها بكلمة (Sauvegarde) عند المسيحيين وكلمة (Aman) "الأمان" عند العرب. كان القانون صارماً في معاقبة كلّ من أساء للمسيحيين، كما أن رجال الجمارك يتابعون المُتهم إلى أن يصلح الخطأ ويعوض الضرر، ولقد وضعت مصالح المسيحيين ومعاملاتهم التجارية مع العرب تحت رعاية مدير الجمارك أو الوالي أو القاضي. وهكذا فلم يكن في إمكان المسئول عن الأمن والمواطن المسلم إعاقة النشاط التجاري للمسيحيين، بينما كان لهؤلاء الخيار في بيع بضاعتهم أو العودة بها إلى أرويا إذا لم يمكنهم التخلص منها، كما كانت لهم الحرية في شراء كل السلع الإفريقية ما عدا الرصاص الذي كان مقصوراً تصديره علي تجار البندقية[١].

---

١) رسالة من عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحقّ بن أبي خرسان الي حكومة بيزه، ص١ – ٦، اتفاقية سلام وتجارة بين المنصور الموحدي وحكومة بيزة، ص١٧ – ٢٢، رسالة عن السيد أبى زيد عبد الرحمن بن أبي حفص بن عبد المؤمن والى تونس إلى تجار بيزة، ص٣٠، رسالة من السيد أبي زيد عبد الرحمن إلى حكومة بيشة، ص ٣٣ ، ٣٤، رسالة من السيد ابو زيد عبد الرحمن بن عبد المؤمن بن علي والي تونس الي حكومة بيزة، ص٤٥ –٤٧، رسالة من الأمير أبوزيد عبد الرحمن والى تونس إلى حاكم بيشة بتاريخ ٢٦ رجب ٥٩٨ / الموافق ٢٣ مارس ١٢٠٢ تقريباً، بخصوص التأكيد على حفظ ورعاية التجار بين الطرفين ، ومحذراً من التعامل مع الثائر بالمهدية عبد الكريم، نشر Michel Amari : A Diplomi Arabi Del Archivio

كما عمل هؤلاء المسئولين علي التودد لهؤلاء التجار من خلال ترغيبهم في الوضع التجاري ببلادهم، فتذكر وثائق تلك المرحلة مناشدة المسئولين المغاربة للتجار والحكام النصارى بالقدوم للمغرب الأدنى، حيث أن الأسعار رخيصة وأن حقوقهم المالية محفوظة وأن سلعهم سوف تكون في أمان وأن سبل الراحة والعيش متوفرة(١).

ويذكر لنا حاكم تونس عبد الله بن خراسان في رسالة بعثها لحكومة بيزة عام٥٥٢هـ/١١٢٨م، أوامره في معاملة تجار بيزة والمميزات التي أعطاها لهم ، فيقول: " وأما أمر القبضة التي توخذ من التجار وجرت بها العادة فقد هونّاها وامرنا بلطفها ورشحنا لخدامنا أن كل تاجر من بلدكم متى وصل بسلعة، ولم يتّفق له معها انه معافى فيها مرفوع عنه الواجب واللازم في أمرها يعيدها إلى بلده علي غرضة مراده وأمرنا ليصاير عامة تجاركم والقيامة بهم والاهتتال بسورهم وحريانهم علي

Fiorntino ١٨٦٣، تحت رقم ٢١، ص٦٥- ٦٨، رسالة من الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص والى افريقية إلى حاكم بيشة ، بتاريخ ٢٨ ربيع الأول ٦٠٧ - ١٩ سبتمبر١٢١٠م، حول الالتزام بالمعاهدات مع الموحدين وحسن معاملة التجار بين الطرفين، نشر Michel Amari: Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino ١٨٦٣، تحت رقم ٢٦ ، ص٧٨ - ٨٠، وثيقة الصلح بين المستنصر الحفصي والصليبيين، ص ٧٠٩ - ٧١٢، Un Traité de commerce conclu pour trente ans entre la république de Pise et le roi de Tunis, Abou-Zakaria-Yahia, fils d'Abou-hafs,pp٣١- ٣٥، عبد الهادي التازي : مرجع سابق ، جـ٥ ، ص٢٢٧، ٢٢٨.

١) رسالة من الترجمان المغربي عثمان الترجمان إلى التاجر البيزي بانش بن كرص، ص٥٠ – ٥٢، رسالة من الأمير أبو زيد عبد الرحمن والى تونس إلى حاكم بيشة، ص٦٥ – ٦٨، رسالة من الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص والى افريقية إلى حاكم بيشة، ص٧٨- ٨٠، اتفاقية صلح بين الخليفة الحفصي أبي يحيي زكرياء وحكومة بيزه في عام ٧١٣ هـ، ص٨٦ - ٩٧، وثيقة الصلح بين المستنصر الحفصي والصليبيين: ص٧٠٩- ٧١٢.

الاكرام والرعاية والاهتمام وتفاوضنا في ذلك مع الشيخ الرئيس ابي تميم سلمه الله" (١).

كما كانت معاملة التجار الأجانب تتأثر أيضاً بمستوي أمانة وخلق التاجر الأجنبي، حيث كان من المعتاد مصادرة أموال التجار الأجانب فور وصولهم للموانئ المغربية ، حتى يتم البحث عن مصدرها؛ والتأكد من أمانة هذا التاجر(٢). ولم يقتصر التجار النصارى في القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلادي علي المجئ إلى تونس والمتاجرة بها بل استقروا فيها(٣).

ولكن رغم هذا التقسيم الديني والعرقي، فقد كان هناك تعاون بين طوائف التجار من كل الأديان والأعراق، فقد عمل التجار المسلمون واليهود والمسيحيون جنباً إلي جنب في تجارة البحر المتوسط في العصر الوسيط، وتعاونوا مراراً علي أسس غير رسمية. وكان التعاون جلياً من خلال مرور السلع والمعلومات بين مختلف مجموعات التجار، فعلي سبيل المثال هناك تاجر يهودي يكتب من الأندلس إلى مراكش في عام٥٣٣هـ/١١٣٨م قائلاً: إنه تلقي معلومات من تجار مسلمين، وصلوا لتوهم من الإسكندرية؛ وبطريقة مماثلة هناك تاجر جنوي، وقد أبحر إلى سبته أو إلى بوجي(بجاية)، ربما توقف في طريق رحلته في ميناء أندلسي جنوي للحصول علي أخبار من التجار المحليين عن شروط الاتجار العادية في شمال أفريقيا(٤).

إذن كان التجار العاملون داخل مجال التجارة البحرية في فترة البحث يفضلون تجميع أنفسهم وفق دياناتهم. وكان التجار المسلمون العاملين بالنشاط التجاري البحري في المغرب الأدنى ينقسمون إلى تجار مغاربة وتجار أندلسيون وتجار مشارق،

---

١) رسالة من عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحقّ بن أبي خرسان إلى حكومة بيزه، ص١ – ٦.
٢) ابن عذاري: البيان، قسم الموحدين، ص٨٢.
٣) هشام أبو رميله: مرجع سابق، ص٣٩٩.
٤) أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١٢٢.

obeikan.com

أما التجار غير المسلمين العاملين بالتجارة البحرية للمغرب الأدنى فقد انقسموا إلى تجار يهود وتجار نصارى خاصة تجار المدن الإيطالية.

ب– التصنيف المهني للتجار:

يمكن تصنيف التجار في تلك الفترة إلي مجموعتين رئيسيتين، المجموعة الأولي هم تجار العمل الجماعي حيث أن التجار يعملون في شكل مجموعة يختص كل واحد فيهم بمهمة معينة، وهناك تجار العمل الفردي المستقل، وهو أن يقوم التجار بمهام مهنته كلها دون الحاجة لمعينً له. ويمكن توضيح كل مجموعة من هؤلاء التجار فيما يأتي.

١ – تجار العمل الجماعي:

ذكر أبو الفضل الدمشقي المؤلف المشرقي في وصف تقليدي للتجار العاملين في العالم الإسلامي في العصر الاسلامي ثلاثة أصناف أساسية للتجار، وأول أصنافه كانت الخزان Khazzan أو فَرّاز Stapler وهو تاجر حضري يخزن السلع في موسم الرخص ويبيعها عند ارتفاع السعر، والصنف الثاني هو الركّاض rakkad الذي كان يرتحل من أجل أعماله التجارية الخاصة به أو بشركائه، أما الصنف الثالث من التجار فلربما هو المجهز Mujahhiz وهو مصدر ومستورد حضري. والراجح أن الأخير من بين هؤلاء الثلاثه هو الذي تاجر علي نطاق واسع ، وكان يعمل كمنظم مركزي لشبكة واسعة من الرحالة والشركاء الحضريين في الأماكن البعيدة، ومع أن هذه الأنماط الثلاثة قد وُصفت أصلاً ، التجار المسلمين المشتغلين في المشرق؛ فهي تتلائم جيداً مع المعلومات عن التجار المغاربة[١].

وأهم أشكال العمل الجماعي في فترة الدراسة الشركات والأسر التجارية اليهودية، فقد كان التجار اليهود يتجمعون في شكل جماعة واحدة، خاصة في سلسلة

١) أوليفيا ريمي كونستبل: المرجع السابق، ص١٠١، ١٠٢.

شركات اليهود ذات المدى البعيد مع بلاد الهند من جانب ومصر وشمال أفريقيا من جانب آخر[١]. ويمكننا الاطلاع على إشارات صريحة إلى ضرورة القيام بالأعمال التجارية في شكل شراكة وليس كأفراد وذلك في رسالة بعث بها جوزيف بن موسي آلتاهرتي من المهدية إلى برهون شقيقه في الفسطاط: "أنا أعلم أنه لا أحد يذهب في تجارة الكتان وحده". و في يوليو عام ١٠٤٩م نقرأ في رسالة بعث بها برهون بن إسحاق آلتاهرتي من المهدية إلى نيهروي بن نسيم: "لقد كتبت بالفعل لك أخي، وأخبرك عن العلاقة بيني وبين سيدي أبو عمران موسى بن نفطال، وكيف انه تعهد بتجارة الزيت من أجل مصلحتي، أنا تلقيت رسالة منه، طلب مني فيها الكتابه لك ، وأود أن أطلب منك شيئا تعاون ثنائي منك في عملك وعمله". وعلاوة على ذلك في تلك الرسالة فقد قال تفاصيل نصيه للشراكة المحتملة التي كان قد أوصى بها، كانت الشراكة مع موسى بن نفطال مرغوب فيها خاصة لأنه كان "بصير بالكتان" أي خبير فيه، كما نجد في تلك الرسالة نفسها معلومات حول شراكة ثالثه بين اثنين من أبناء عمومة آل التاهرتي، برهون بن إسحاق وبرهون بن صالح، ومسلم يسمي أبو القاسم عبد الرحمن في تجارة اللؤلؤ . كما ذكر شراكة بين شخص مجهول و" أسرة بنو مسكن "[٢].

وربما يقف وراء العمل التجاري الجماعي للتجار اليهود فوائد الانتماء إلي جماعة، فقد كان لدي هذه الجماعة إدارتها الخاصة، وفيها موظفون تعينهم الجماعة يعملون لخدمة مصالحها. وكانت لديها الوسائل اللازمة لاتخاذ القرارات المتعلقة بالجماعة ولتنفيذ هذه القرارات، كما كانت لديها محاكمها الخاصة، وكانت تقدم عدداً من

---

(١) Marcus arkin ; op,cit, pp٥٣ , ٥٤ .

(٢) ٦ A Letter sent by Barhun b. Isaac al-Tahirti from Mahdiyya to Nehorai b. Nissim , In July ١٠٤ , Published by Moshe Gil: The Jewish Merchants in the Light of Eleventh-Century Geniza Documents , Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. ٤٦, No. ٣ (٢٠٠٣, pp ٢٧٥ , ٢٧٦ .

obeikan.com

الخدمات الاجتماعية، التي تشمل قدراً كبيراً من التعليم، ولعل هذا شيء مهم من أجل مستقبل مجتمع تجاري. كما كان الانتماء إلي جماعة تقوم بدافع فدية أعضائها إذا ما وقعوا بأيدي قراصنة برقة، كان ميزة واضحة في عالم البحر المتوسط في الأيام التي سبقت ظهور وحدات الكوميون القادرة علي إرسال بعثات تأديبية من أجل تدمير قواعد القراصنة ، ولم يكن بهم كثيراً أن للتجار اليهود منافسين مسيحيين أو مسلمين ما دام هؤلاء المنافسون يفتقرون إلى القوة[١].

كما يمكن أن يكون وراء العمل التجاري الجماعي للتجار اليهود الضرورة الدينية التي تقتضي أن لا تصح الصلاة إلا بمشاركة عشرة كهول من الذكور على أقل تقدير، هي التي تفسر ولو بصورة جزئية لماذا كان التجار اليهود يسافرون ضمن مجموعات كبيرة إلى حد ما، ومن الأفضل أن تكون متجانسة ومؤلفة من أفراد يسكنون في نفس الحي، الأمر الذي من شأنه أن يساعد علي فض بعض مشاكل القسمة الناشئة عن حالات الغرق والوفاة. أضف إلى ذلك أن كل تاجر سواء في الهند أو في البحر المتوسط يجب أن يكون مصحوباً برفيق[٢].

كما يمكن أن يكون وراء العمل التجاري الجماعي للتجار اليهود أن كثيراً من التجار اليهود كانوا مرتبطين بعضهم ببعض بروابط عائلية أو روابط عمل أو بكليهما؛ ولقد برز من خلال وثائق الجنيزة خمس وثلاثون أسرة، كان عشرة منها بارزة بصفة خاصة. وكانت هذه الأسر بدورها مترابطة فيما بينها وشكلت مجموعات بارزة بصفة خاصة، وقد كان التجمع الأسري أو الشراكة الأسرية أهم ما يميز ذلك العمل الجماعي، حيث امتهنت أسر بأكملها أو اغلب أشخاصها العمل في التجارة البحرية، بحيث يتم تقسيم العمل بين أفراد الأسرة الواحدة ، فبعضهم كان يعمل كوكيل وآخر يعمل كرحال وهكذا، وقد ظهر هذا النوع من التجار علي وجه

١) جوزيف شاخت ، كليفورد بوروث: مرجع سابق، جـ١ ، ص٣٠٥، ٣٠٦.
٢) الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٨٩ -٢٩١.

Obeikan.com

التحديد في الأسرة اليهودية والتي كان عناصرها يرتبطون في شكل تجمع يشمل أكثر من بلد وتكون الرسائل هي عامل الوحدة بينهم في عملهم التجاري(١).

ومن تلك الأسر التي امتهنت العمل التجاري بشكل جماعي، أسرة عروس بن جوزيف الأرجواني المهدوي (نسبة لمدينة المهدية)، والذي امتهن مهنة التجارة البحرية والسفر إلى بلاد الشرق الأقصى لجلب البضائع، وقد انخرط ابن اخوه جوزيف وابن اخته علان بن حسون، والذي ذاع شهرته في مجال التجارة البحرية هو الاخر، وقد انخرط علان في عمل عروس وتزوج احدي بناته. وعرف جيدا ما غاب عن عروس، وكان دائما يخاطب عروس علي انه والده ويصف نفسه بأنه من ذريته . في الرسائل والوثائق القانونية 'علان يُسمى "ابن أخت عروس" جوزيف بن شقيق عروس. علان امضي قدماً في هذا الطريق وفقا لتعليمات من عمه، وهذا واضح من حقيقة أنه يذكر أسماء زبائنه (جميع المسلمين) في أماكن بعيدة من دون أي تفاصيل أخرى، وقد اشتكت زوجة علان هذا لزوجها في رسالة ترك رجال البيت والسفر للتجارة خاصة أبوها وزوجها، اشتكت هذا إلى " الرجل العجوز" والدها، والذي كان أيضا بعيدا في رحلة "حتى أننا مثل الأيتام"، "منزل من دون رجل"، وهذا ما دعي علان بعدما تقدم في السن أن يرسل رسالة لأبنائه وهو في عيذاب يبدي أسفه لاضطراره للترحال بشكل دائم، ونصح أبنائه لا تكون على الطريق طول الوقت مثله فمن شأن الشراكة الأسرية ارهاقهم ونشر التعب بينهم(٢).

---

(١) A Letter from Abraham Ben Yiju to his Brothers and Sisters after His Safe Return from India, pp٦٨١-٦٨٧. Moshe Gil : The Jewish Merchants in the Light of Eleventh-Century Geniza Documents , Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. ٤٦, No. ٣ (٢٠٠٣, p ٢٧٤ , Goitein.S.D : COMMERCIAL AND FAMILY PARTNERSHIPS IN THE COUNTRIES OF MEDIEVAL ISLAM , Islamic Studies, Vol. ٣, No. ٣ (SEPTEMBER ١٩٦٤) , p ٣٢٨,٣٢٩ .

٢) رسالة من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عيذاب إلي أولاده في مصر، ص٤٥٦.

- Goitein. S.D ; Portrait of a Medieval India Trader , pp٤٥٠ – ٤٥٤ .

obeikan.com

ومن الأسر التجارية التي ذاع صيتها في التجارة البحرية في تلك الفترة لاسيما في تجارة المغرب الأدنى البحرية عائلة "آل عوكل"، وتؤكدها وثائق الجنيزة المتعلقة بالنشاط التجاري وحجم أعمال بيت أبي الفرج يوسف بن يعقوب بن عوكل التي تعد أقدم أرشيف لنشاط تجاري في وثائق الجنيزة، ويحوي هذا الأرشيف مراسلات أربعة أجيال من بيت عوكل فيما بين عامي (٣٦٩ – ٤٦٩هـ / ٩٨٠ – ١٠٧٦م) كما يقول ستيلمان stilman الذي درس هذه الوثائق فقد استقرت أسرة بن عوكل في الفسطاط، بدليل أنه أغلب الرسائل المرسلة لها وجهت إلي الفسطاط، ويبدو أن هذه الأسرة الفارسية الأصل قد هاجرت إلي أفريقية في أواسط القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، ثم قدمت إلى مصر مع الفاطميين بعد عام ٣٥٨هـ/٩٦٨م[١].

ومن بين الأسر التى ذاع صيتها في العمل التجاري بشكل جماعى، أسرة (التاهرتيين) وأصلهم من القيروان، ومن خلال مراسلاتهم نعرف أن رب هذه الأسرة يسمي (برهون)، وله أربعة أبناء وثمانية أحفاد؛ كما أن احدي بناته هي والدة التاجر الكبير نيهروي بن نسيم، كما أن بنت أخرى له متزوجة بعائلة بيرشهاز القيروانية الرائدة المعروفة آنذاك، وكانت هناك عدة علاقات عائلية أخرى من هذا

---

(١) A Letter-probably from the late tenth century-addressed to AbÛ Bishr and AbÛ Yaqub… YaqÛb b. YÛsuf and YÛsuf b. Ya'qÛb b. YÛsuf (TS ١٢,٣٨٣) (No. ٢٩. , Published by Stillman,N.A : The Eleventh century merchants House Of Ibn Awakal , (Ageniza Study) , Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. ١٦, No. ١ (Apr., ١٩٧٣),pp١٦,١٧. An Account statement from the year ١٠٣٨, by (TS Arabic Box ٥٣, f. ٥ which time Ibn 'Awkal must have been a septuagenarian (No. ٣ ٥) Published by Stillman,N.A : The Eleventh century merchants House Of Ibn Awakal , (Ageniza Study) , Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. ١٦, No. ١ (Apr., ١٩٧٣) , p١٧.

محمد عبد الغني الأشقر: مرجع سابق، ص٣٤

Stillman,N.A : The Eleventh century merchants House Of Ibn Awakal , (Ageniza Study) , Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. ١٦, No. ١ (Apr., ١٩٧٣), pp١٦,١٧.

Obeikan.com

القبيل. وعلاوة على ذلك، كان يشار إلى التاهرتيين مرارا في صيغة الجمع باسم "أبناء التاهرتي، وكان شهرتهم في وثائق الجنيزة تقريبا بسبب عددهم الكبير والنفوذ، أنها وصفت في رسالة كتبها أحد خصومهم باسم "فرقة واحدة توحدت بروح واحده". وقد ساهم في بروز اسم هذه العائلة في أكثر من وثيقة من وثائق الجنيزة، أن أحد أفراد هذه العائلة كان رجل دين بارز في القدس، وبالتالي كان مرتبطا مع نظرائه في معابد القاهرة القديمة حيث مركز وثائق الجنيزة. إن قراءة سريعة من مراسلاتهم يعطينا الانطباع بأن الجيل الثاني من الإخوة التاهرتيين عملوا معاً بشكل دائم، في حين تم تواصل الأحفاد مع بعضهم البعض من خلال التعاون غير الرسمي، وتعزيز الشراكات من خلال ما تم التعاقد عليها من مشاريع تجارية محددة . وكان الإخوة التاهرتيين يقسمون العمل فيما بينهم حيث أن واحداً أو اثنين منهم، يبقى في مصر لعدد من السنوات، في حين كان الآخرون ينشطون في قاعدتهم في القيروان وغيرها من الأماكن في تونس أو في أسبانيا(١).

وهناك عائلة شهيرة أخرى يهودية من أصل فارسي وهى عائلة التُستري، وهى تحمل اسماً يشير إلى مدينة والى سلعة اشتهرت بها هذه المدينة. ومن الرسائل المحفوظة يتضح لنا إن التستريين الأصليين كانوا يتعاملون في أرقى الأقمشة، ولكنهم لم يحصروا أنفسهم في الاتجار بالأقمشة التي عرفت بها بلدتهم؛ ففي إحدى الوثائق نراهم بين كثير من البضائع الأخرى، يتاجرون في الرازي (رداء مصنوع في بلدة الري أو سُمى باسمها، وهى مدينة تقع في شمال فارس) من القاهرة إلى القيروان، ثم إلى عاصمة تونس(٢)؛ وأصبح أبي سعد التستري في منتصف القرن

---

(١) In ٦ a letter sent by Barhun b. Isaac al-Tahirti from Mahdiyya to Nehorai b. Nissim , July ١٠٤ , pp٢٧٥,٢٧٦ . S. D. Goitein : COMMERCIAL AND FAMILY PARTNERSHIPS, p٣٣٠,٣٣١.

٢) جواتين: مرجع سابق، ص١٧٣، ١٧٤. Moshe Gil. The Tustaris: Family and Sect [in Hebrew] Publications of the Diaspora Research Institute, bk. ٣٩. Tel-Aviv: Tel-Aviv

الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي أقوى رجل في الدولة الفاطمية في مجال التجارة(١).

وكان من أشهر من عُرف من أهل مرسيليا بعلاقاته التجارية مع إفريقية بل والمغرب الإسلامي بأسره عائلة (Manduel) التي سيطرت على تجارة مرسيليا مع المغرب الإسلامي لمدة تزيد عن النصف قرن(٢).

من جانب آخر نجد أن العمل الجماعي أخذ شكل آخر مع ظهور (تجار الكارمية)، حيث تخصص هؤلاء في تجارة المحيط الهندي لاسيما التوابل، حيث تاجر هؤلاء في البهار والتوابل والفلفل وغير ذلك من سلع الهند. من جانب آخر يلاحظ أن غالبية تجار عدن في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، كانوا من التجار اليهود النازحين من بلاد المغرب، وهذا يعني ببساطة أنه اشترك في تجارة الكارم تجار يهود ومسلمون من أصل مغربي، بدليل أن وثائق موانئ البحر الأحمر والجزيرة العربية والهند كانت تموج بأسماء أعداد كبيرة من التجار المغاربة الذين قدموا من المغرب، فقد شجع الفاطميون بعد أن انتقلوا إلى مصر أعداد كبيرة من تجار المغرب على الهجرة إلى مصر، رغبة في الاستفادة من خبرتهم في التجارة ودفعوا بهم إلى تجارة الهند، فقد جاءت إلى مصر في عام ٤٠٠هـ/١٠٠٩م أعداد كبيرة منهم، كما يستشف من وثائق الجنيزة التي نقرأ فيها أسماء كثيرة لهذه العائلات المغربية التي كانت تعمل في تجارة الهند(٣).

University Press, ١٩٨١.pp ١١٦.

١) جواتين: مرجع سابق، ص٢٣٥، ٢٣٦.

٢) ممدوح حسين علي حسين: مرجع سابق، ص٦٥٥– ٦٥٧.

Gisele Chovin : A Perca Sur Les Relations de La France avec Le Maroc , des Origines a la fin du Mayon Age , Hesperies , Tom XLIV, ١٩٥٧,p٢٧٤

٣) محمد عبد الغني الأشقر: مرجع سابق، ص٤٦، ٤٧، مصطفي عبد الكريم الخطيب: مرجع سابق، ص ١٠١.

obeikan.com

٢ – تجار العمل الفردي:

وكان هناك أنماط أو نماذج من الناشطين في تجارة البحر المتوسط، وذلك إلي جانب أصناف الدمشقي الثلاثة السابقة، رغم أنهم لم يكونوا منخرطين مباشرةً في أعمال التجارة الدولية، وكان بين هؤلاء تشكيلة من الوكلاء والسماسرة والوسطاء الذين يمارسون التجارة الخارجية [١].

ومن تجار العمل الفردي (الوكيل) هو الذي يوكل من قبل صاحب السلعة للتصرف فيها، ودلالة وجود وكالة في فترة الدراسة بكثرة، وقد أشارت بعض فتاوى المازري إلى ذلك. فقد جاء في فتوى أن رجلاً كلف شخصاً آخر ببيع عروض في الإسكندرية مقابل أجر معلوم وتوجيه المال إلى المهدية والأندلس. وجاء في فتوى أخري أن إفريقي توفي تاركاً المال الذي وجّهه إليه رجل في مصر، ويبدو أن الأمر يتعلق بتوجيه أموال إلي وكيل مقيم في مصر[٢]. كما سُئل المازري عمن يدفع إلي وكيل قناطير يبيعها له في توزر بثمن معين ويشتري بهذا الثمن ما ترجي فائدته ويأخذ ثلث الربح، كما سئل أيضاً عمن دفع إلى وكيل حلي من ذهب وفضة يسافر بها إلي صقلية ويبيعها هناك، ويجلب بثمنها طعاماً يبيعه في المهدية ويأخذ نصف الربح؛ ومن هنا يمكن أن نستنتج أن الوكيل يقوم بعمل مزدوج فهو يقوم ببيع سلعة موكله، هذا بالإضافة إلي شراء سلعة أخري يبعث بها إليه [٣].

وكان الوكيل يعمل بمقتضى اتفاق مكتوب في عقد لا يتعداه، وفى حدود هذا الاتفاق يقوم التعامل بين التاجر والوكيل على الثقة، ولهذا كان الفقهاء يرون عدم

---

١) أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١٠٣.

٢) المازري: مصدر سابق، ص٢٥٣، ٢٦٠، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٧٧- ٢٨٠.

٣) الونشريسي: مصدر سابق، جـ٨، ص٢٠٦، ٢٠٨، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٣٢.

obeikan.com

تضمين الوكلاء[١]، وبالطبع كان عقد الوكالة يتضمن قواعد و شروط لضمان حق الطرفين، مثل تحديد نوع الوكالة، سواءً أكانت وكالة خاصة أو جامعة، وذكر أن الوكيل أو الموكل عليه ديون أم لا تدخل في سياق الوكالة. وكذلك ذكر السلع الموكل فيها وأسعارها وكيفية التصرف عند زيادة سعرها أو نقصانه[٢].

أما أجر الوكيل فكان مبنياً على اتفاق بين صاحب السلعة ووكيله، فنلاحظ في إحدى فتاوى المازري أن أجر الوكيل ثلث الربح، بينما أجره في فتوى أخرى كان نصف الربح، ولا يضمن الوكيل إلا إذا وجد تناقض في قوله سئل الفقيه السيوري عمن بعث مع وكيل دنانير ليشتري بها متاع، فلما رجع الوكيل من سفره ادعي ضياعها وكانت إجاباته متناقضة، فتارة يقول كانت في يده، وتارة يقول كانت في جرابه فسقطت منه ، فأجاب أن اختلاف قوله يوجب عليه الضمان[٣].

ولعل ما دفع بعض التجار المغاربة إلى استئجار وكلاء للقيام بأعمالهم في الخارج، هو أن بعض تجار المغاربة كانوا يحترفون مهنة أخرى غير التجارة، ولا يرغبون في التنقل. وكان الوكيل يسافر بالبضائع أو يشتريها ويرسلها إلى موكله أو يشرف على نقلها خاصة في المراسي، ومن الوكلاء من يختص بخدمة تاجر واحد، ومنهم من يفتح حانوتاً ويخدم كل من يطلبه. كما كانت مهنة الوكيل تبث الحيوية في التجارة البحرية وتحقيق مكسب كبير، حيث يمكن للتاجر تقليل التكلفة عن طريق إرسال البضائع إلى وكيل في الخارج بدلا من السفر مع بضاعته[٤].

---

١)عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، ص٥١٧، ٥١٨، عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص٢٨١.

٢)عبد الواحد المراكشى: وثائق المرابطين والموحدين، ص٥٢٧ – ٥٣١.

٣) الونشريسي: مصدر سابق، جـ٨، ص٢٠٦، ٢٠٨، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٣٢.

٤) A. Lawsuit of Jekuthiel al-Hakum vs. Joseph Lebdi in Session of the Rabbinical Court of Fustat, Fustat, November ٩, ١٠٩٧,(ULC Add. ٣٤١٨ - ULC Add. ٣٤٢١)), Published by Mordechai Akiva Friedman, Goitein.S.D : India Traders of the Middle Ages (Documents from the cairo Geniza) , the Ben – Zvi Institute Jerusalem , Brill ,

وقد قام التجار اليهود بدور كبير في نظام الوكالة، خصوصاً وأن العلاقات العائلية قد ربطت بين تجار اليهود المشارقة والمغاربة، فبرع اليهود في التجارة عامة وبوجه خاص مع المشرق، خاصة وأن كبار التجار اليهود المعروفين في تلك الفترة قد عملوا كوكلاء لنظرائهم المغاربة في التجارة مع مصر وبلاد المشرق الأقصى، مثل التاجر اليهودي الشهير جوزيف بن ليبيدي، والذي عمل كوكيل لديان المهدية (ابن لبرا) في بيع المرجان المغربي الذي أعطاه له في مصر، إلا أن ابن ليبيدي فضل بيعه في بلاد الهند(١).

كما كان للنصارى من أهل الأندلس وأوربا وكلائهم أيضاً في المغرب خاصة في عهد الموحدين، حتى وصل الأمر أنه كان للزعماء النصارى وكلاء يتاجرون لهم في بلاد المغرب، مثل الوكيل التجاري لـ "شانجة" زعيم النصارى بالمغرب، الذي أشار إليه ابن عذارى في معرض حديثه عن عصر الخليفة الرشيد الموحدى: "وربما اجتمع

Leiden , Boston ٢٠٠٨,pp١٦٨ – ١٧٤ . A. Lawsuit of =lawsuit of Ibn Sughmar vs. Joseph Lebdi in Session of the Rabbinical Court of Fustat, Fustat, November ١٢, ١٠٩٧,(ULC Add. ٣٤١٦) , Published by Mordechai Akiva Friedman,.Goitein. S.D := India Traders of the Middle Ages (Documents from the cairo Geniza) , the Ben – Zvi Institute Jerusalem , Brill , Leiden , Boston ٢٠٠٨,pp٢١١ – ٢١٥ .

الونشريسي: مصدر سابق، جـ٨، ص٢٠٦ – ٢٠٨، عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي، ص٢٨١

Avner Greif ; Reputation and Coalitions in Medieval Trade: Evidence on the Maghribi Traders , The Journal of Economic History, Vol. ٤٩, No. ٤ (Dec., ١٩٨٩) ,٨٥٧ .

١ (A. Lawsuit of lawsuit of Ibn Sughmar vs. Joseph Lebdi in Session of the Rabbinical Court of Fustat, Fustat, November ١٢, ١٠٩٧,pp٢١١ – ٢١٥ .

الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٨٩ –٢٩١، جمال أحمد طه: مرجع سابق، عصمت عبد اللطيف دندش: مرجع سابق، ص٢١١، ٢١٢، ص٢٣٩،

- Goitein.S.D : jews and arabas, Pp.١١٨ ,١١٩, From the Mediterranean to India, P١٩٠

أبو عثمان – أبى عثمان سعيد بن زكرياء الجدميوى – بشخص رومي خاص بالرومى جوان كيس، وكان وكيل شانجة زعيم النصارى"[١].

وهناك مشاكل قد ارتبطت بظهور نظام الوكيل، لا يمكن حلها من قبل النظام القانوني ولا من قبل السوق المجهول. نشأت هذه المشاكل من حقيقة أن الوكلاء الذين كانوا يتاجرون باستخدام رأس المال لشخص آخر، يمكن بسهولة الاختفاء مع رأس المال أو الاحتيال في الأعمال التي أجريت في أسواق بعيدة؛ إلا أن هناك نظم لحل تلك المشاكل تتعلق بالرقابة الاجتماعية والأخلاق. ولعل سمعة الوكيل هي التي تحدد مدي شهرته وقدرته علي الاستمرار في تلك المهنة ، فالشرف والأمانة هما ضمانة أي تاجر للعمل كوكيل، وإذا اتهم أي وكيل بقضية تتعلق بشرف المهنة كان العقاب جماعي من جميع التجار بمقاطعته، مثل التاجر الوكيل أبون بن صدقه الذي عاش في القدس في القرن الحادي عشر الميلادي، وتبين أنه اتهم (وإن لم يكن اتهم في المحكمة) باختلاس أموال تاجر مغربي. وعندما وصل هذا الاتهام لتجار مغاربة آخرين، لذلك الغي تجار في مناطق بعيدة له مثل صقلية وكالتهم له، ولم يستأنفوا علاقاتهم التجارية معه إلا بعد أن تم التوصل إلى حل وسط وأن (أبون) قد يعوض التاجر[٢].

وقد اختص رجل الأعمال (ابن عوكل) وشركاؤه بتجارة البحر المتوسط على وجه الحصر، بما فيها التجارة مع المغرب. وقد وظفت الشركة هذه عدداً من الوكلاء الأندلسيين في العقود الأولى من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، مثل الوكيل خلف بن يعقوب الأندلسي، الذي برز اسمه مراراً في مراسلات ابن عوكل، والذي يبدو أنه اشتغل وسيطاً تجارياً في المهدية . وقد أرسل ابن عوكل في رسائل

---

١)ابن عذارى: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٣٠٧

٢) A Letter from Abūn b. Siadaqa in Jerusalem to Hiayyim b. ʿAmmār al-Madīnī in Alexandria , p٦ . Avner Greif ; Reputation and Coalitions in Medieval Trade, pp ٨٦٩ , ٨٧٠

مطولة من باليرمو إلي المهدية تمدح خلف وابنه، اللذين يتمتعان بخبرة كبيرة لحصولهما على حقوق مركب غارق. وهناك وكيل أندلسي آخر لابن عوكل كان يتعامل بالحرير. يرد ذكره في رسالة إلي ابن عوكل في مصر كتبت في تونس عام٤٠٠هـ/١٠١٠م، كما تذكر رسالة أخرى مرسلة من باليرمو بين عامي٤١٠ هـ/١٠٢٠م و٤٢٠هـ/١٠٣٠م أن شريكاً أندلسياً آخر، قد كتب إلى ابن عوكل قائلاً: " سأرسل الحرير بمشيئة الله في المركب الذي نسافر فيه أنا ومروان الأندلسي إلى المهدية بعد غد"(١).

ومن أصناف التجار الذين أتقنوا العمل الفردي، ما يسمي بالتاجر الجوال (السفار)، ولأنه كان مستقلاً بعمله فقد يتبضع للآخرين. ويلاحظ أن الفقهاء يقولون بتضمينه، فكأن أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة أرادوا أن يضيقوا الخناق علي مثل هؤلاء المتوسطة أحوالهم، هذا فضلاً عما كان يلقاه هؤلاء التجار السفار من صعاب نتيجة طبيعة عملهم. والغالب أن يتاجر المتجول بماله كله، ويدخل بلاداً كثيرة في سفرته؛ فتطول غيبته، وقد ينكب في الطريق فيضطر للاستدانة. ونتيجة لطول غيبته كان كثيراً ما يواجه قضايا طلاق أو نفقة، ويقوم أصحاب الديون المترتبة عليه في موطنه فيبيعون أملاكه. وعلي الرغم من هذا يبدو أن عمل هؤلاء التجار المتجولين كان مغرياً لهم بالربح إن صدقت التجارة، فهم أقدر علي التجارة بين البادية والحاضرة، وهم أقدر علي المخاطرة بالسفر إلي مناطق الفتن حيث ترتفع الأسعار، ويصحبون الحملات العسكرية منتهزين الفرصة في أوقات الشدة(٢).

---

١)أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١٤٩ – ١٥١.

Goitein: A med ,٢,pp١-٦٠ . From the Mediterranean to India, pp١٩٠ , ١٩١.

٢) رسالة من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عدن الي خاله عروس بن جوزيف، ص ٤٥٥، ٤٥٦، رسالة من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عيذاب إلي أولاده في مصر، ص ٤٥٦، عز الدين عمر موسي: النشاط الاقتصادي، ص٢٨٢، ٢٨٣.

obeikan.com

ومن أمثلة التاجر الجوال تاجر يهودي مغربي يُدعي " علان بن حسون " سابق الذكر فرغم انه انخرط في عمل جماعي مع خاله داخل الأسرة إلا أن الوثائق تشير أيضا إلى انه امتهن العمل الفردي والتجوال، وتعتبر قصة تجارة علان في بلاد الهند واليمن مثال قوي للتجار المتجولين، فبعد أن درس علان الوضع في عدن قرر السفر إلى الهند، وقد تعدت رحلاته إلى هناك حتى بلغ من العمر أرذله(١).

ويمكن للتاجر أن يعمل صرافاً أيضاً. ومما لا شك فيه أن اليهود كانوا يتعاطون التجارة المالية، إذ كانوا يقومون بعمليات الصرف أو القرض الرهني، وكانوا يعرفون عندئذ "الكمبيالة" باسمها الروماني "كمبيو"، وكان الناس يلتجئون إليهم بطيب خاطر كوسطاء للحصول علي خلاصة الأسري المسلمين المحتجزين في أرض النصارى، وكان من الأفضل بالنسبة إلى هذه العمليات التوجه نحو أحد أرباب البنوك اليهود الذي تسمح له علاقاته مع أوربا بالحصول علي نتائج ايجابية بأكثر سهولة. ولعلهم كانوا يقدمون أيضاً يد المساعدة لافتداء الأسري النصارى(٢).

ويري جواتين استناداً إلى وثائق "الجنيزة" أن المسلمين من المغاربة لا اليهود كانوا أصحاب الدور الرئيسي في الأعمال المصرفية الكبرى، ومن الصعب الموافقة على هذا الرأي، لأن وثائق "الجنيزة" ذاتها تشير في وضوح إلى عمل يهود المغرب الغالب في الذهب والفضة والنحاس وما يصاغ منها . وإلى هذا تشير المصادر المغربية، فيقطع ابن يوسف الحكيم في كتابه الدوحة، بعمل أهل الذمة عامة في

---

١) رسالة من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عدن الي خاله عروس بن جوزيف، ص ٤٥٤، ٤٥٥، رسالة ثانية من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عدن إلي خاله عروس بن جوزيف، ص ٤٥٥، ٤٥٦، رسالة من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عيذاب إلي أولاده في مصر، ص ٤٥٦،

Goitein.S.D ; Portrait of a Medieval India Trader , pp٤٥٠ – ٤٥٤ .

٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: مرجع سابق، ص٩٥، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ١، ص ب٤٤٣.

obeikan.com

الصياغة والصيرفة؛ صحيح أن روايته جاءت عن العصر المريني، ولكن ليس هناك ما يشير إلى أن هذا تطوّر حصل في الفترة المرينية فقط [١].

إذن يمكن تصنيف التجار العاملون بالنشاط التجاري البحري للمغرب الأدنى في تلك الفترة تصنيفا مهنياً، حيث وجد قسمين من التجار حسب هذا التصنيف، القسم الأول تجار العمل الجماعي وأشهر أشكال هذا التصنيف الشركات والأسر التجارية اليهودية، وكذلك تجار الكارمية عند المسلمين. أما القسم الثاني من هؤلاء التجار فهم تجار العمل الفردي مثل الوكلاء والتجار الرحالة والصيارفة من التجار.

جـ – التصنيف الاجتماعي للتجار:

شكلت الحالة الاجتماعية للتجار عاملاً مهماً لتصنيفهم ، لاسيما التجار المغاربة ، فبعض الأمراء أو حكام المغرب الأدنى عُرف عنه ممارسته للتجارة، كما اعتاد أهل العلم لاسيما الفقهاء على ممارسة التجارة كمصدر للرزق، وهذا ما سنوضحه كالتالي:

١ – التاجر الحاكم:

فقد برز أمراء بني زيري في التجارة البحرية وكانت لحسابهم الخاص، ولذلك استفادوا من إعفاءات وتخفيضات جمركية كان يمنحها الملوك بعضهم لبعض، وتظهر السيطرة الزيرية علي التجارة البحرية في أسماء المراكب، فوثائق الجنيزة تحدثنا عن أسماء مراكب منها مركب السلطان الذي يبدو من هذه التسمية أنه ملك لحاكم

---

١) Goiten: Jews and Arabs, pp١١٥-١١٧ ، عز الدين عمر موسي: النشاط الاقتصادي، ص١١٠.

obeikan.com

تونس، وهناك مركب آخر اسمه مركب القائد وغيرها من أسماء المراكب مثل الميمون والمبارك التي تبدو وكأنها أسماء لأمراء[١].

ونشير أيضاً إلى أن الأمير علي بن يحيي (٥٠٩ – ٥١٥ هـ / ١١١٦ – ١١٢١) قام بحصار قابس لأن صاحبها رافع بن مكن الدهماني أنشأ مركباً يسافر فيه التجار، ورأى علي بأنه أحق منه في القيام بهذه المهمة، وهذا ربما يدل علي أن الأمير علي كانت له تجارة في هذه المراكب ومن ثم إقدامه على هذا العمل كان من قبيل حمايتها والمحافظة عليها[٢].

كما تتحدث إحدى وثائق الجنيزة عن أمير برقة جبارة بن مكثر الذي وصفته بالقرصان المريع والتاجر وحامي السفن. ولكن إذا نظرنا إلي تجارة الحكام من جهة أخري وجدنا أنه يكون فيها العروض والبيع والشراء الذي لا يقدر أي أحد أن يزيد عليه، وقد قيل إذا شارك السلطان الرعية في التجارة هلكوا، وقد وضح ابن خلدون الآثار السلبية إذا شارك الحكام في التجارة، ومنها أن الدولة بإمكانها التحكم في السوق بسبب امتلاكها لرأسمال كبير مقارنة بالتجار، كما أن الدولة يمكنها أن تشتري كل شيء بأبخس الأثمان، ومن يناقش في السعر يتعرض للمصادرة والدولة هي من تفرض المكوس أو الضرائب فهي إذن تعفي نفسها منها وتفرضها مرتفعة على التجار، وهذا يدفعهم إلى اعتزال التجارة، كما أنها تتحكم في الأسعار فهي تدفع التجار إلي الشراء بسعر ثم تقوم بخفض السعر وهذا يؤدي إلي خسارة التجار، ومن ثم ترك المهنة ويفسح الطريق أمامها[٣].

---

١) المازري: مصدر سابق، ص١٢٣، جواتين: مرجع سابق، ص٢٤٤، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٨٤، ٢٨٥، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٢٣.

٢) ابن الأثير: مصدر سابق، جـ٩، ١٦٩، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٢٣.

٣) عبد المالك بكاي: المرجع السابق، ص٢٣.

obeikan.com

٢ – التاجر الفقيه:

كان هناك مجموعة من العلماء ارتحلوا لأجل العلم والتجارة فسافر من إفريقية إلي الأندلس مجموعة من العلماء والتجار، كما قدم إليها من الأندلس ومن أقطار أخري مجموعة أخري من العلماء التجار. ومن بين الفقهاء الذين مارسوا التجارة الفقيه أبو عبد الله بن سعدون بن علي بن بلال القروي الذي تفقه بالقيروان وسمع من شيوخها كابن الأجدابي وكان فقيهاً حافظاً للمسائل، وقد اشتغل بالتجارة وقد طاف بلاد المغرب والأندلس لغرض العلم والتجارة وتوفي بإغمات عام٤٨٦هـ/١٠٩٣م، وقيل قبل عام٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م، والمصادر لا تحدثنا عن نوعية التجارة التي كان يتجر بها [١]. ومن الفقهاء الذين امتهنوا التجارة أيضاً محمد بن القاسم بن أبي الحاج القروي ويكني أبا عبد الله وهو من أهل القيروان سافر إلي قرطبة عام ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، بغرض التجارة وقد حدث بها أيضاً وقد قال عنه ابن بشكوال بأنه من أهل العلم والنفوذ في التجارة والتبصر بأنواعها وربما هذا يدل علي أنه كان يتاجر في أنواع عديدة من السلع. وكان محمد بن تميم بن أبي العرب القيرواني من فقهاء القيروان التجار إذ سافر عام ٤١٦هـ/١٠٢٥م إلى الأندلس بغرض العلم والتجارة ثم عاد إلي القيروان وبها توفي عام ٤١٩هـ/١٠٢٨م، لكننا نجهل نوعية التجارة التي كان يمارسها. ومن الفقهاء التجار موسي بن عاصم بن سفيان التونسي ويكني أبا هارون ويفهم من اسمه أنه من تونس، وقد دخل إلي الأندلس عام٤٣١هـ/١٠٣٩م بغرض التجارة، ومنهم أيضاً عبد الرحمن الترجوقي وهو من أهل إفريقية يكني أبا الحسن وقد دخل إلي الأندلس تاجراً، والمصادر التي اطلعنا

١) الدباغ: مصدر سابق، جـ٣، ص٩٩، ١٤٠، ١٩٨، عبد المالك بكاي: المرجع السابق، ص٢٤ – ٢٦.

obeikan.com

عليها لم تخبرنا عن السلع التي كان يتاجر بها هذا بالنسبة للتجار الفقهاء من أهل إفريقية سواء ممن استقر بها أو ممن سافروا إلي الأندلس وغيرها من بلاد المسلمين[١].

وهناك تجار فقهاء آخرون دخلوا إلي إفريقية من مختلف أقطار البلاد الإسلامية، ومنهم نزار بن محمد بن عبد الله القيسي الزيات ويكني أبا عمر وهو من اشبيلية وكان شيخاً صالحاً ومتديناً وقد سافر إلي افريقية طالباً للعلم والتجارة، وقد توفي في شعبان٤٢٤هـ/١٠٣٢م. ومنهم أيضاً هشام بن عطاء بن أبي زيد بن هشام الطرابلسي الذي يُكني أبا يزيد، ويُفهم من اسمه أنه من طرابلس الشرق لأنه دخل العراق أولاً ثم سافر نحو إفريقية والأندلس وكان تاجراً عالماً، ولم تمكننا المصادر المتوفرة من معرفة طبيعة النشاط الذي كان يمارسه ولا المراكز والأسواق التجارية التي كان يرتحل إليها[٢].

ومن الفقهاء التجار أيضاً عبد الله بن طلحة بن عمرون الوهراني يكني أبا محمد وهو علي حسب اسمه من وهران وكان عالماً بالحساب والطب وكان نافذاً فيهما وكان تاجراً، وقد قدم إلي إفريقية بغرض العلم والتجارة ، وسافر عام ٤٢٩هـ/١٠٣٧م إلي الأندلس وسكن أشبيلية. ولم تحدثنا المصادر علي نوعية التجارة التي كان يمتهنها[٣]. ومنهم مروان بن سليمان بن مورقاط الغافقي يكنى أبا عبد الملك وهو من أهل أشبيلية، رحل إلى إفريقية بغرض التجارة وقد توفي في شهر رمضان ٤١٨هـ / ١٠٢٧م[٤].

إذن برزت طبقات اجتماعية بعينها في مجال النشاط التجاري البحري، ويمكن تصنيف هؤلاء إلى التاجر الحاكم وقد برز منهم في العمل بالنشاط التجاري البحري

---

١) ابن بشكوال: مصدر سابق، جـ٣، ص٨٦٤، ٨٨٣، عبد المالك بكاي: المرجع سابق، ص٢٥.
٢) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ٣، ص٩٢٣،٩٤٦.
٣) المصدر السابق: جـ٢، ص٤٥١، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٢٦.
٤) ابن بشكوال: المصدر السابق، جـ٣، ص٨٨٨.

obeikan.com

أمراء بني زيري، وكذلك التاجر الفقيه حيث عمل مجموعة من العلماء والفقهاء بالتجارة البحرية أثناء ارتحالهم لطلب العلم.

د- منازعات التجار:

كان نتيجة عدم وجود خط واضح بين السلطة الدينية والدنيوية في النظم الحكومية الإسلامية في تلك الفترة، فقد أشرفت السلطتين الحكومية الدينية على كثير من الهيئات الصناعية والزراعية والأعمال التجارية خاصة فيما يتعلق بالتسهيلات في الميناء، من تحميل وشحن ورسوم وتحويل. من جهة أخري فإن الشريعة تتحكم أيضاً بين الأشخاص المتنازعين حول القروض التجارية واتفاقات الشراكة، وعند وجود صعوبة تجارية أو ضرر أو خلاف، كان القاضي المسلم مُهيأ تهيئاً جيداً لإيجاد مخرج شرعي(١).

١ – أنواع المنازعات :

وقد ظهرت منازعات بين المغاربة بعضهم وبعض سواء بين تجار أم بين تجار وأشخاص عاديين، وذلك بسبب دخول تلك الأطراف في النشاط التجاري البحري لبلاد المغرب الأدنى، ومن تلك الأمثلة:

فقد سئل المازري عمّن دفع له حليا وخاتم ذهب ودبلج فضة، يسافر بها لصقلية ويبيعها، ويشتري بثمنها طعاماً، ويأتي به فيبيعه بالمهدية، ويأخذ نصف الربح، فقام من ناب عن صاحب الحلي، وزعم أنها ما أعطته ذلك إلا لأنها بضاعة، لما بين القرابة من مودة وهي قريبة، فهل يكون القول قوله أو قولها؟ فأجاب: بأن القول قول المرأة، أنها بضاعته، وينظر إلى مال العامل، فإن كان مثله ممن يعمل للناس بالقراض، ويأخذ الأجرة على البضاعة، فينظر إلى الأقلّ منهما فهو له، فإن كانت الأجرة في الأقل، حلفت المرأة على ذلك، وإلا فلا يمين عليها، وإن كان مثله

١)أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١٨١.

Openkan.com

ممن لا يعمل بالقراض ولا يأخذ من هذه أجرة لقرابتها ويساره البضاعة، حلفت وكان القول قولها[١].

كما سُئل المازري عمّن دفع لرجل مالا قراضاً فيسافر به للمشرق، وكتبا بينهما وثيقة فاشترى الرجل بضاعة وحملها في المركب، فلما وصل لنبدوشة انفتح المركب، وخشي عليه الغرق، وردّه سالما إلى المهدية، فدفع البضاعة إلى استقبال الزمان، فتسافر بها فلما جاء إقبال الزمان أخذ أضعاف المال الأول من عند غيره، ونسي طلب الوثيقة فبقي مع الثاني نحو خمس عشرة سنة، ولم يذكر الرجل أن له قبله شيئا، وافتقر واحتاج ولم يذكر شيئا حتى توفي، وقد كان خاصمه قبل موته على عشرة دنانير فقال: مالك على شيء وحلفه القاضي على ذلك بقصر الرباط بمحضر بينة، ولم يذكر أن له عليه شيئا غير ذلك حتى توفي فقام بعض الورثة بتلك الوثيقة، وأنكر ذلك العامل وقال: لو بقي له عندي شيء لخاصمني عليه؟ فأجاب: إذا أثبت ما ذكرت من طول المدة واجتماعه به، وتمكنه من طلبه وحاجته إلى ماله، ودعواه عليه بالعشرة دنانير، ولم يخاصمه إلا عليها، واستحلافه وعلى رجوع المركب بالسلعة المشتراه في بعض الطريق إلى الموضع الذي خرج منه، فالقول قول العامل أنه ردّ إليه المال مع يمينه لقوة شبهة القراض ويبرأ، ولو تأكدت القرائن، وقويت لسقطت اليمين عنه، وذلك لعلمه بتحقق أمرهم ومشهرة أحوالهم[٢].

وسئل أيضاً: عن تاجر دفع إلى بحري دنانير مرابطية قراضا يسافر بها إلى صقلية، ثم غاب ربّ المال مدّة فلما قدم من سفره سأل البحري عن الدنانير قال: كنت في قارب لطيف غير قاربي التي عادتي نسافر فيها من ملطة، فأشار إلينا من في الحصن المعروف بالزكام بأن العدو قريب منّا فأخذت جميع ما هو لي، ما اشتريت بالدنانير المذكورة فدفعته في الحصن، وأسلمته للقائد علي " فحدث الأمر الذي

١) المازري: مصدر سابق، ص٢٨٣.

٢) المصدر السابق: ص٢٨٦.

انكسر الحصن وغيره فيه ". فأجاب: القول قول البحري مع يمينه أن الخوف طرأ علينا في البحر، وأني دفعت الذهب إلى من في الحصن المذكور، ولا تلزمه بينّة على ما ذكره من الخوف بسبب عدم البيّنة من ذلك الموضع ، ويزيد في يمينه وما خنت وما تسلفت، ولا دفعتها إلا بعينها [١].

أما منازعات التجار المغاربة مع نظرائهم الأجانب فيما يخص التجارة البحرية فكانت تتلخص في بعض القضايا الأساسية، مثل عدم دفع باقي الأثمان المُستحقة لتجار مغاربة باعوا سلعهم للأجانب بطريقة البيع بالأجل، كما أن بعض التجار الأجانب في بعض الأحيان يحاولون التغاطي عن دفع ما عليهم من مستحقات مالية بسبب معارفهم في دولهم، كما أن حالات القرصنة كانت هي الأخرى تسبب نشوب منازعات تجارية، مثل حادثة المسطحات التي كانت السبب في نشوب مشكلات تجارية معقدة بين التجار المغاربة ونظرائهم البيزيين[٢].

كما كانت الشراكة الدولية هي السبب الرئيسي في منازعات التجار سواء بين المغاربة ونظرائهم الأجانب أو بين الأجانب بعضهم وبعض، وذلك نتيجة أن كانوا موزعين جغرافياً، ولأن بعض الإشارات عن أعمالهم قد حفظت في وثائق متعلقة

١) المصدر السابق: ص٢٨٥.

٢) رسالة من عبد الرحمن بن أبي الطاهر الناظر بديوان افريقية إلى حكومة بيزة، ص٢٣ – ٢٨، رسالة من عبد الرحمن بن أبي الطاهر ناظر ديوان تونس إلى حكومة بيزة ، ص ٣٨ ، ٤٢، رسالة من التاجر محرز القابسي الي التاجر الكبير باج البيزي، ص٤٨، ٤٩، رسالة من التاجر المغربي هلال بن خليفة الجمونسي إلى التاجر البيزي الكبير باج، ص٥٠ – ٥٢، رسالة من التاجر إبراهيم بن خليفة الجلاد بتونس إلى التاجران البيزيان باج وفرسطان، ص٥٧، ٥٨، رسالة من تونس إلى حاكم بيزه لإنصاف أحد التجار ، ص٨٣ – ٨٥.

obeikan.com

بالشكاوي القانونية، فقد أدي هذا (ربما خطأ) إلي تكوين انطباع أن الشراكة لأمد طويل كانت محفوفة بالمخاطر[١].

وكانت المنازعات التي تظهر بين اليهود بخصوص التجارة البحرية تحل في محاكم الأحبار الخاصة باليهود فقط، ومن أشهر القضايا في هذا المجال قضية جوزيف الليبيدي. ففي عام٤٩٦هـ/١١٠٢م، استقر هذا التاجر اليهودي الذي يحمل لقب اللبدي(نسبة إلي المدينة الطرابلسيه لبدة) بالقاهرة حيث اشتري جزءاً من منزل بمبلغ ٣٠٠ دينار، وقبل التحول إلى الهند ذهب إلى المهدية حيث سلّم إليه "الديان" (القاضي بمحكمة الأحبار) المدعو ابن لبرات كمية من المرجان، واشتري كمية أخري لحسابه الخاص. ولما رجع إلي القاهرة تسلم السلع التي عهد بها إليه الوكيل والمتمثلة في الأقمشة وبالخصوص الكتان الروسي المقدر حق قدره في الهند، والأواني الفضية والنحاس والأدوية والمرجان، مع كيس نقود فيه عشرون ديناراً من الذهب حديثة الضرب. وأمره الوكيل بتسليم نصف تلك السلع إلى وكيل عدن الذي سيشتري في مقابلها بهار مالابار، وتوجيه النصف الآخر إلى مدينة نهراوارة الواقعة شمالي بومباي لتبديله بالبرنيق. فسار اللبدي نحو عالية نهر النيل، إلي أن وصل إلي مدينة قوس في الصعيد، ومن هناك اجتاز الصحراء علي ظهر جمل إلي أن وصل إلي ميناء عيذاب الذي تنطلق منه السفن في اتجاه الهند. وقبل الوصول إلى المكان المقصود، قام اللبدي ببعض الصفقات المتعلقة بالنسيج والمخدرات، ونقل معه إلى الهند كمية المرجان التي سلمها إليه كل من ديان المهدية ووكيل القاهرة، بالإضافة إلي الكمية التي اشتراها لحسابه الخاص. ولكنه عوض أن يبيع مرجان وكيل القاهرة ويشتري بثمنه البرنيق، أبدله بالخرز أو الخريزات (أي اللؤلؤ)، ووجه البهار والفولاذ إلي وكيل عدن، ولما عاد إلى القاهرة لام عليه وكيل تلك المدينة

---

١) أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١٣٢ – ١٣٤.

Gointein.S.D : Med ,٣,p ٢٨٠.

Obeikan.com

وديّان المهدية مخالفته لتعليماتها، وأثيرت حول هذا الموضوع قضية عدلية دامت زهاء السنتين عامي٤٩٠هـ/١٠٩٧م و٤٩١هـ/١٠٩٨م، وكانت موضوع عدة جلسات عقدتها المحاكم اليهودية في عدن والهند والبلاد التونسية (بلاشك المهدية)، وانتهت بتسويات صُلحية. وسلم اللبدي إلى الديّان ثلاثة قوارير من المسك؛ تعويضاً عن مرجانه الذي كان من النوع الرديء، وتولى بالإضافة إلى ذلك الاتجار بالنيلة في القاهرة. ويبدو أنه استظهر للوكيل بتذكرة في السلع التي تسلمها، مع بيان قيمتها بالعملة المحلية[١].

إذن كان هناك العديد من المنازعات التجارية خاصة بالنشاط التجاري البحري في تلك الفترة، فقد ظهرت منازعات بين المغاربة بعضهم وبعض سواء بين تجار أو بين تجار وأشخاص عاديين، وذلك بسبب دخول تلك الأطراف في النشاط التجاري البحري لبلاد المغرب الأدنى. كما كانت الشراكة الدولية هي السبب الرئيسي في منازعات التجار سواء بين المغاربة ونظرائهم الأجانب أو بين الأجانب بعضهم وبعض.

٢ – أهل الاختصاص في الفصل في منازعات التجار:

كان المعنيين بالفصل بين التجار المغاربة بعضهم وبعض أو بين التجار المسلمون عامة، القضاة والفقهاء، حيث كانت تُعرض تلك المنازعات عليهم للفصل فيها وإصدار الفتوى المناسبة لتلك المشكلات، ومن هؤلاء الفقهاء الذين

---

(١) A. Lawsuit of Jekuthiel al-Hakum vs. Joseph Lebdi in Session of the Rabbinical Court of Fustat, Fustat, November ٩, ١٠٩٧,pp١٦٨ – ١٧٤ . A. Lawsuit of lawsuit of Ibn Sughmar vs. Joseph Lebdi in Session of the Rabbinical Court of Fustat, Fustat, November ١٢, ١٠٩٧,pp٢١٣ – ٢١٥، الهادي روجي إدريس : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص٢٨٩ -٢٩١، .

ينسبوا لفترة البحث الفقيه المازري[١]. كما أن التجار المغاربة أنفسهم بعض الأحيان يقومون بحل مشاكلهم ومنازعاتهم فيما بينهم دون اللجوء لطرف ثالث[٢].

أما المعنيين بالفصل بين التجار اليهود سواء المغاربة منهم أو غير المغاربة، فهم قضاة وحاخامات المحاكم الدينية اليهودية، والتي كانت على تواصل فيما بينها سواء داخل بلاد المغرب الأدنى أو خارجها، خاصة مع الموجودة منها في القاهرة أو في القدس، ونظراً لما تتميز به التجارة البحرية من أنها تتخطى الحدود لأكثر من إقليم أو دولة ، كان هناك صعوبة في تواجد المتخاصمين في مكان واحد، لذلك كان على التاجر اليهودي في المهدية مثلا ، أن يرسل عنه ممثل أو أكثر لكي يمثله أمام محكمة في القاهرة، إذا كانت القضية متعلقة بيهودي يقيم في مصر، مثلما فعل ابن لبرا المقيم في المهدية، حيث أرسل ممثلان له للدفاع عن مصالحه أمام محكمة الفسطاط اليهودية أثناء نزاعه مع التاجر اليهودي المشهور جوزيف بن ليبيدي، في القضية سابقة الذكر[٣].

أما المعنيين بالفصل في المنازعات التجارية لاسيما بين التجار المغاربة والأجانب خاصة التجار النصارى، فإذا ما اشتكي مغربي من مسيحي فإن القنصل المسيحي هو الذي ينظر في القضية، غير أنه بالممارسة أدخلت تعديلات من بينها أنه في حالة غياب القنصل المسيحي يمكن نقل مقايض صلاحيته القضائية إلي مصالح الديوان المغربي، ولقد أدخل أهل ببزة في معاهدتهم مواد تخول للسلطات حق الفصل في كل

---

١) الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٨٢، ٢٨٣.

٢) الأبي: إكمال إكمال المعلم، جـ٥، ص٣١.

٣) A. Lawsuit of Jekuthiel al-Hakum vs. Joseph Lebdi,pp١٦٨ – ١٧٤ . A. Lawsuit of lawsuit of Ibn Sughmar vs. Joseph Lebdi,pp٢١١ – ٢١٥ ، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٨٩ –٢٩١ ، إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس، ص٩٦، ٩٧.

obeikan.com

القضايا ذات الأهمية القصوى. وقد يكون الوالي قائد القصبة أو مدير الديوان غير أن القاضي المسلم هو المختص في القضايا التي يكون فيها المسلم مدّعّي عليه[١].

وفي بعض الأحيان كان الأمر يتطلب سفر التاجر المغربي إلي حكومة البلد التي يتبعها التاجر الأجنبي من أجل حل المنازعات بين الطرفين وتوسيط حكومة البلدين في ذلك، ويظهر هذا جلياً من خلال رسالة أُرسلت من المسئولون في تونس إلي حكومة مدينة بيزة مع تاجر مغربي يُدعي عمر بن أبي الجيد الإسرائيلي التونسي، حيث كان لهذا التاجر حقوق مالية وتجارية عند تاجران يهوديان يعيشان في بيزه، فتذكر الرساله: " وموصله إليكم عمر بن أبي الجيد الاسرايلي التونسي وفقه الله وسلمه له طلب ببلدكم عند ابيذين اليهودي وصهره بيتوره المتنصر وغيرهما فنحب منكم أن تنصفوه من جميع من يتعين له عليه حق لانه ما استطاع علي اخذ حقه منهم بسبب تعلقهم باعيان من أهل البلد وبيده عقود ثابتة عليهم فنحب منكم تقفوا على ما بيده من العقود وتعملوا له حكومة حتى ينتصف منهم وتكون يدكم عليه ويكون مرعي الجانب عندكم لانه ممن يكرم علينا "[٢].

ورغم وجود اختلاف للعقائد كان التجار في العصور الوسطى بوجه عام يلاقون العدالة السريعة اللازمة من قبل الأمراء والحكام المحليين، والتي بدونها تتلف بضائعهم وتعلق سفنهم في الموانئ[٣]. وكانت الاتفاقيات الدولية بين حكام المغرب الأدنى وحكام الدول الأجنبية أشارت إلي تحديد الإطار الذي يجب أن يلتزم

---

١) اتفاقية صلح بين الخليفة الحفصي ابي يحيي زكرياء وحكومة بيزة في عام ٧١٣هـ، ص٨٦ – ٩٧، عبد الهادى التازى: مرجع سابق، جـ٥، ص٢٢٨-٢٣٠، جـ٦، ص٢٥٣.

٢) رسالة من تونس إلى حاكم بيزه لإنصاف أحد التجا ، الرسالة مؤرخة بـ ٢٠ شوال ٦٢٤، ص٨٣ – ٨٥.

٣) Un Traité de commerce conclu pour trente ans entre la république de Pise et le roi de Tunis, Abou-Zakaria-Yahia, fils d'Abou-hafs,pp٣١- ٣٥ , Leon E. Trakman : From the Medieval Law Merchant to E-Merchant Law , The University of Toronto Law Journal, Vol. ٥٣, No. ٣ (Summer, ٢٠٠٣) , p٢٧٥ .

obeikan.com

به الطرفان عند حدوث تعدي من قبل تجار الدول الأجنبية علي تجار المغرب وأهله في الموانئ المغربية، حيث نصت تلك الاتفاقيات علي انه متى نجم من أهل تلك البلاد الأجنبية أي تعدي مثل قطع سبيل أو حرابة أو تعرض منهم متعرض للمسلمين بنوع من أنواع المضرّة والأذية فعليهم أخذه بجريرته ومعاقبته بما يوجبون على من جنى عليهم مثل جنايته دون مسامحة في ذلك ولا يسافرونه في مراكبهم، ومن فعل ذلك منهم فقد نقض عهده ووجب علي الحاكم المغربي أن يمضي فيه بما شاء حُكمه وكان له أن يتملك رقبته ويستبيح ماله ودمه، ولكن بشرط أن يكون من أهل هذه الدولة المتعاقد معها الأصليين وأن يكون العقاب عليه هو فقط دون غيره من أهل هذه الدولة(١).

إلا أن حادثة المسطحات كانت اختبار لتلك القواعد في حل المنازعات، فقد عمد ناظر ووالي افريقية في تلك الفترة إلى توثيق خسائر التجار المغاربة وملاك السفن وحصر هذه الخسائر تمهيداً لتعويض أصحابها، وذلك عن طريق بيع قمح البيزانيين بمحضرهم وبمحضر الشهود والكتّاب أيضا من البيزانيين فلم يفِ ثمن القمح بما اخذ للمسلمين فبيع قمح اللُّكين وكمل به المال لتعويض المتضررين، وبذلك تعدت العقوبة الجناة لتشمل معاقبة كل رعايا الدولة التابع لها هؤلاء الجناه(٢).

وكانت المنازعات بين التجار المحليين والأجانب يتم الحكم فيها وتوثيقها في الجامع الأعظم بحضور شهود العدل والقاضي والكتبة والمترجمين، ويتم ذلك

١) اتفاقية سلام وتجارة بين المنصور الموحدي وحكومة بيزة، ص١٧ – ٢٢.

٢) رسالة من عبد الرحمن بن أبي الطاهر الناظر بديوان افريقية إلى حكومة بيزة، ص٢٣ – ٢٨.

بحلفان الأطراف التي تدعي أن لها حقوق ويتم توثيق ذلك في شهادات إثبات يتم إرسالها لحكومات الأطراف المتنازع معها لأخذ تلك الحقوق[١].

إذن كان المعنيين بالفصل بين التجار المغاربة بعضهم وبعض أو بين التجار المسلمون عامة، القضاة والفقهاء، أما المعنيين بالفصل بين التجار اليهود سواء المغاربة منهم أو غير المغاربة، فهم قضاة وحاخامات المحاكم الدينية اليهودية، كذلك كان القنصل فيما يخص منازعات التجار النصارى.

من خلال ما سبق يتبين أن العاملين بالنشاط التجاري البحري ثلاثة أصناف رئيسية، الصنف الأول هم العاملون بالمراكز التجارية وهم ذات صفة رسمية أي يتبعون الكيانات السياسية التي قامت في تلك المناطق، الصنف الثاني هم العاملون على السفن التجارية وهم قسمان رئيسيان الربان والبحريون، أما الصنف الثالث فهم التجار وكانوا يصنفون في تلك الفترة حسب أكثر من معيار، فقد صنفوا حسب التصنيف الديني العرقي أي تجار مسلمون وغير مسلمون، وصنفوا حسب التصنيف المهني إلى تجار عمل جماعي وتجار عمل فردي، أما التصنيف الثالث لهم فهو التصنيف الاجتماعي أي حسب مكانتهم الاجتماعية، ثم تطرقنا في هذا الفصل إلى منازعات التجار، فوضحنا أنواعها وأهل الاختصاص لفضها.

١) المصدر السابق: ص٢٣ – ٢٨، رسالة من عبد الرحمن بن أبى الطاهر ناظر ديوان تونس الي حكومة بيزة، ص ٣٨،٤٢.

obeikan.com